ذكرياتي



رابندرانات

طاغور

ترجمة : صلاح صلاح

دعني أغرق ، أنا،
في أعماق منتصف
الليل ، دع الأرض
تتركني ، طليقاً من
عائق الجثة الترابية
أيتها النجوم المتلألئة
بشعاع القمر ،
أرقني من بعد الأفق
يغمرني بأجنحته .

ذكــرياتي

MY REMINISCENCES

BY

RABINDRANATH TAGORE

MACMILLAN PUBLISHERS 1991

ذكـــرياتي

رابندرانات طاغور

ترجمـة : صلاح صلاح

الطبعة الأولى
1995

منشورات المجمع الثقافي
Cultural Foundation Publications

ص. ب ٢٣٨٠ - ابوظبي - الإمارات العربية المتحدة - هاتف : ٢١٥٣٠٠
P.O. BOX : 2380 - ABU DHABI - U.A.E. - TEL. 215300 - CULTURAL FOUNDATION

1

تمهيد

لا أعلم مَنْ رسم صور حياتي وطبعها في ذاكرتي ، غير أنه فنان أياً كان . لم يأخذ ريشته ليحاكي ببساطة كل ما يحدث ؛ بل أبقى أوحذف كما يهوى ، كثيرٌ من الأشياء الكبيرة أحالها صغيرة ، والصغيرة كبيرة ، ولم يتوانَ في استبدال ما في المقدمة بما ورد في الخلفية . باختصار ، مهمته رسم الصور ، لا كتابة التاريخ . يصوغ مجرى الأحداث حياتنا الخارجية ، بينما ترسم سلسلة من الصور في دواخلنا . يتوافق الاثنان ، بيد أنهما ليسا متطابقين .

لا نكرس الوقت للنظر ملياً في هذا النسيج الداخلي ، وإن كنا نلمح بين حين وآخر جزءاً منه ، غير أن القسم الأعظم يبقى لنا مظلماً غير مرئي . لماذا يستمر الرسام في الرسم ، متى سينجز عمله ، وأي معرض مقدر له أن يعرض صوره ، من يستطيع الإجابة؟ !

دعاني سؤال شخص منذ سنوات خلت عن أحداث حياتي الماضية ، لاكتشاف حجرة الرسومات هذه ، خيِّل لي بأني سأتوقف بعد اختياربعض الحوادث من قصة حياتي ، لكن ما أن فتحت الباب حتى

تبين لي أن الذكريات ليست تاريخاً ، بل إبداعات أصيلة للفنان غير المنظور .

الألوان المتنوعة المتناثرة ليست انعكاساً للعالم الخارجي ، بل ملكاً للرسام نفسه ، وتنبع رغبة يشوبها لون خفيف من قلبه ، لذا لاتصلح كتابة سجل على هذا النسيج كدليل في المحكمة .

لكن على الرغم من عدم جدوى محاولة جمع قصة منطقية دقيقة من مخزن الذاكرة ، فإن سحر وإثارة خلط الصور استحوذ عليَّ .

طالما نحن على سفر ، ولا نقف إلا لأخذ قسط من الراحة في ملاجىء مختلفة علي جانب الطريق ، فإننا لا نرى هذه الصور ، وتبدو الأشياء ذات فائدة ليس إلا ، حالات وجد متماسكة يصعب تذكرها ، ولا تشرع هذه الصور في العودة إلا عندما يصل المسافر إلى غايته ولا تعود له حاجة بها . وحين يخلد للراحة في نهاية النهار ، تجول في ذهنه كل المدن والمروج والأنهار والتلال التي مر بها في فجر حياته ، هكذا نظرت إلى الخلف بروية ، وانهمكت مستغرقاً في ما رأيت .

هل انبثق هذا الاهتمام من التأثر العاطفي الطبيعي بالماضي فقط؟ طبعاً ، لا بد من توفر ارتباط شخصي ، بيد أن للصور قيمة مستقلة في حد ذاتها .

ليس في ذكرياتي من حدث يستحق الحفظ للأبد ، القيمة الأدبية لاتقوم على أهمية موضوع ، إذا استطعنا جعل كل ما نشعر به بصدق معقولاً للآخرين ، فإنه يحظى بالاحترام دائماً ، إذا تأتى لنا التعبير

بالكلمات عن الصور التي تكونت في الذاكرة ، تستحق عندها مكانة في الأدب .

لذا ، أقدم صور ذاكرتي كمادة أدبية . ومن الخطأ اعتبارها محاولة لكتابة سيرة ذاتية ، وإلا فإنها ستبدو حشواً وإطناباً زائداً ، وغير تامة .

2

التعليم بدأ

كنا ثلاثة صبية ، نشأنا وترعرعنا معاً . كان زميلاي يكبراني بسنتين . بدأ تعليمي عندما كُلّف مدرسٌ خاص بتدريسنا ، غير أني لا أذكر الآن شيئاً مما تعلمته . ما يستعيده ذهني دائماً هو «المطر يطقطق برتابة والورقة تهتز» . سمعت هذا أول مرة عندما رسيت بعد عبور المنطقة العاصفة لسلسلة كاراكهالا . لقد سحرتني آنئذ لكونها أول قصيدة لأجداد كل الشعراء . كلما استعيد متعة ذلك اليوم أدرك ضرورة القافية في الشعر ذلك أن الكلمات تنتهي بالقافية ، ومع ذلك لاتنتهي ؛ ينتهي النطق ولا ينتهي رنينه ، ويستمر العقل والأذن في لعبتهما بطرح القافية جيئة وذهاباً . هكذا طقطق المطر برتابة واهتزت الأوراق في شعوري ووعيي مراراً وتكراراً .

حدث آخر من فترة انبلاج العمر هذه يلتصق بذهني سريعاً . كان لدينا أمين صندوق اسمه كايلاش يعتبر كفرد من أفراد العائلة ، كان في غاية الفطنة ، يمازح الجميع دائماً ويطلق النكات مع الصغار والكبار ، والأنساب الجدد ، خاصة مع المنتمين إلى العائلة حديثاً الذين

كانوا موضع هزئه ونكاته . حتى بعد موته ، ساورنا شك في ما إذا كانت روح دعابته قد هجرته . حدث مرة أن كان الكبار منهمكين في محاولة إرسال رسالة إلى العالم الآخر بواسطة لوح صغير معلق به قلم ، يعتقد أنه يكتب لوحده عند لمسه بالأصابع . في إحدى الجلسات خربش القلم اسم كايلاش . سألوه عن نوع الحياة التي يحياها الإنسان هناك . أجاب «لقد وجدت ذلك بشق الأنفس بالموت ، والآن تريدون أيها الأحياء معرفة ذلك عبر طريق مختصر دون فعل أي شيء» .

كانِ كايلاش يغني بحيوية أغنية هزلية ألفها بنفسه وحطم بها أوزان الشعر لإسعادي . كنت فيها البطل الذي يتشوف بلهفة وترقب وصول بطلة عروس تسلب اللب بجمالها لدرجة أن القدر كان يفتن في حضرتها ، حين أستمع للأغنية تشتعل صورتها لامعة في ذهني . كانت المجوهرات التي تزينها من رأسها إلى أخمص قدميها ، والفخامة التي لم يسمع بمثلها من قبل في الإعداد للزفاف تدير رؤوس من هم أكبر وأكثر حكمة ، لكن ما فتن هذا الصبي وجعل صور الفرح ترقص أمام عينيه هو تناغم القوافي وانتظام الإيقاع .

لا تزال هاتان الإثارتان الأدبيتان في ذاكرتي ، والأخرى أناشيد الحضانة الكلاسيكية «المطر يهطل خافقاً ، والمد يعلو في النهر» .

الشيء الآخر الذي أذكره هو بداية حياتي المدرسية ، في يوم رأيت أخي الكبير وابن أختي ساتيا ، وهو أكبر مني أيضاً ، ذاهبين إلى المدرسة . تركاني وحيداً لأني أصغر من أن أركب عربة أو أغادر البيت ،

عندما عاد ساتيا بقصص مغامراته المفرطة في انفعالاتها عن الطريق ، شعرت أني لا أقوى على البقاء في البيت ، حاول معلمنا أن يبدد وهمي بنصائح سديدة وصفعة مدوية «تبكي الآن للذهاب إلى المدرسة . عليك أن تبكي أكثر في المستقبل لإخراجك منها .» لا أذكر اسم المدرس ، ولا وجهه ، ولا شخصيته ، لكن انطباع هذه النصيحة الثقيلة ويده الأثقل لم يخبُ بعد . لم أسمع في حياتي نبوءة أصدق من هذه .

قادني بكائي إلى المدرسة الشرقية قبل الأوان . ليست لدي فكرة عما تعلمته هناك ، لكن إحدى طرقهم في العقاب لاتزال ماثلة في ذهني . كان الصبي الذي لايحفظ دروسه يوقف على مقعد ، و يفرش ذراعاه على امتدادهما وفي كفيه المقلوبين إلى أعلى توضع كومة من الصخور المقطعة على شكل ألواح . دع علماء النفس يناقشون كيف يمكن لهذا الأسلوب أن يستحث فهماً أفضل .

هكذا بدأت تعليمي في سن غض جداً . وجاءت بدايتي في الأدب في نفس الفترة من الكتب الرائجة في مهاجع الخدم ، التي من أهمها كانت الترجمة البنغالية لحكم شاناكيا وأقواله المأثورة وكتاب كريتيفاس «رامايا» ، أذكر بوضوح يوماً كنت أقرأ فيه «رامايا» كانت السماء غائمة وأنا ألعب على الشرفة المطلة على الشارع .على حين غرة ولسبب لا أذكره ، قرر ساتيا إرعابي . صرخ «يا شرطي ، يا شرطي» . كانت فكرتي عن وظائف الشرطي مبهمة جداً ، غير أني كنت على يقين من

واحدة وهي أن الشخص المتهم بجريمة ، عندما يقع في يدي الشرطي يصبح مثل المسكين الذي يقع في فكي تمساح يغوص ولا يرى أبداً . ولعدم معرفتي كيف يمكن لصبي الهرب من مثل هذا العقاب الصارم ، فررت إلى المقصورات الداخلية والرجفة تسري في ظهري خوفاً من ملاحقة الشرطي . أخبرت أمي عن مصيري المشؤوم الموشك على الحدوث ، لكن ذلك لم يزعجها . رغم ذلك لم أجازف . جلست عل عتبة باب حجرة أمي ورحت أقرأ كتاب «رامايا» البالي بغلافه الورقي الشبيه بالرخام والذي يخص عمتها العجوز ، وأمامي تمتد الشرفة المطلة على الجهات الأربع لفناء البيت الداخلي والمتوهجة قليلاً بضوء الأصيل الباهت المنبثق من السماء المكدسة بالغيوم . لبكائي على هذا المنظر الحزين جاءت عمتي العظيمة وأخذت الكتاب مني .

3

داخل المنزل وخارجه

إلى حد ما ، لم يكن الترف شيئاً معروفاً في طفولتي المبكرة . كان مستوى المعيشة حين ذاك أقل تعقيداً مما عليه الآن . لكن ذلك كان على الأقل يعني أن أطفال أسرتنا بعيدين تماماً عن الاهتمام المبالغ فيه الذي تفرضه العناية الفائقة . الحقيقة أن العناية بالأطفال قد تكون بالنسبة للأوصياء معاملة عرضية ، غير أنها بالنسبة للأطفال تعني قمة الإزعاج .

كنا نعيش تحت حكم الخدم الذين كانوا عملياً يحظرون حقنا في حرية الحركة لينأوا بأنفسهم عن المتاعب . كان ذلك صعب التحمل ، لكن الإهمال أيضاً كان نوعاً من الإستقلال ، الذي ترك عقولنا حرة غير مثقلة ومدللة بكل أشكال الإزعاج المعتادة حول مسائل الطعام واللباس .

لم يكن ما نأكله يمت بأي صلة إلى الطعام الشهي ، ولباسنا إذا توجب عليّ شرحه بالتفصيل يثير ازدراء الطفل الحديث . لم يكن لنا تحت أي حجة أو ذريعة ارتداء الأحذية أو الجوارب قبل سن العاشرة . في الطقس البارد كان القميص القطني الآخر الذي يلبس فوق

القميص الأول يعتبر كافياً . ولم نفكر بتاتاً بأننا سيئو الهندام . كنا نتذمر فقط عندما يغفل الخياط العجوز نعمات وضع جيب على القميص ، لأن الطفل الذي يمنعه فقره عن ملء جيبه لم يولد بعد . ويفضل العناية الإلهية الرحيمة لم يكن هناك فرق كبير في الثروة بين أطفال الفقراء والأغنياء . كان كل منا يملك خفاً واحداً لا ننتعله دائماً . كانت الأخف بشكل عام تسبقنا ببضع خطوات وتدفعها الأقدام الآتية ، ويكتنف وجودها شك في كل خطوة تخطوها .

حافظ البالغون على وضع مسافة شاسعة بينهم وبيننا في الملبس والمأكل ، وفي الذهاب والإياب ، وفي العمل والحديث والتسلية . كنا نسرق نظرات فقط من هذه النشاطات البعيدة المنال . اليوم أصبح الوصول إلى البالغين وكل أنواع المتع أمراً يسيراً سهل المنال بالنسبة للأطفال . لم يكن هناك ما هو سهل بالنسبة لنا ، وكثير من الأشياء التافهة كانت نادرة ، ونعيش على أمل ما يخبئه لنا المستقبل عندما نكبر . النتيجة اننا استمتعنا إلى أقصى الحدود بالقليل الذي كنا نحصل عليه ولم نَرْمِ بشيء إطلاقاً من القشرة إلى الصميم . اليوم يأخذ طفل عائلة موسرة نصف ما يقدم إليه ، ويبدد الجزء الأعظم من عالمه .

كنا نقضي أيامنا في الركن الجنوبي الشرقي من جناح الخدم الواقع في المقصورات الخارجية . كان أحد خدمنا يدعى شايام ، ولد أسود ممتلىء بخصل مجعدة ، جاء إلينا كانهمار البرد من مقاطعة كولفا . كان يحيط موضعاً يختاره بخط طبشوري بعد أن يضعني فيه ويحذرني

حول أنفسهم بعناية ثم يدورون مرة أو مرتين في الحديقة الخارجية وهم يجمعون الزهور ويمشون الهوينى في اتجاه بيوتهم مشيعين جواً من الراحة في ذهابهم . كل ذلك يستمر إلى مابعد الظهيرة بقليل ، ثم يهجر مكان الاستحمام ويسوده الصمت ، ولا يبقى إلا البط في الماء يغوص لاصطياد قواقع الحلزون ويسوي ريشه بمنقاره باهتياج طوال ماتبقى من النهار .

عندما يسود السكون الماء ، يتركز كل انتباهي على الظلال تحت شجرة التين البنغالية التي شكل بعض جذورها الهوائية الظاهرة المنحدرة على طول جذعها لفات معقدة داكنة اللون على قاعدتها .

كما لو بفعل السحر ، هرب هذا الركن الغامض من نظم القوانين الطبيعية ، كما لو أن بعض عالم الحلم بعيد الاحتمال الذي غض الخالق عنه بصره مكث في نور الزمن المعاصر . من رأيت هناك ، وماذا فعل هؤلاء الناس !؟ أنا عاجز عن التعبير عنه بلغه مفهومة . إنها شجرة التين البنغالية التي كتبت عنها لاحقاً :

ليلاً نهاراً تقف مثل زاهد ناسك بشعر متلبد

هل فكرت حيناً بذلك الصبي الذي لها خياله بظلالك؟

واحسرتاه على شجرة التين البنغالية المهيبة التي لم يعد لها وجود ، وعلى الحوض الذي كان مرآة لها . كثير من الذين كانوا يستحمون في ذلك الحوض رحلوا أيضاً ، واندمجوا في فيء الشجرة العظيمة . والصبي الذي كبر أرسى جذوره عميقاً ونشرها ، يتأمل الآن في شكل

بوجهه الرزين وإصبعه المرفوع عن مخاطر تخطي تلك الدائرة . لم أفهم بالضبط أبداً إن كان هذا الخطر جسدياً أم عقلياً ، لكن الخوف لاريب كان يمتلكني ، إذ قرأت في «رامايينا» عن محن سيتا إثر مغادرتها الدائرة التي رسمها لاكشمان ، لذا لم أشك لحظة في قوة وفعالية الدائرة المحيطة بي .

تحت نافذة تلك الغرفة تماماً ، ثمة درج يهبط إلى حوض استحمام على ضفته الغربية بمحاذاة حائط الحديقة شجرة تين بنغالية ضخمة . في الجهة الجنوبية كانت توجد أشجار جوز الهند . مثل سجين في زنزانة ، كنت أقضي كل النهار أنظر عبر مصراع النافذة الفينيسية محدقاً في هذا المشهد كما لو أنه صورة في كتاب ، من الصباح الباكر يتوافد جيراننا واحداً إثر الآخر للاستحمام ، كنت أعرف وقت وصول كل منهم ، وغرابة عاداتهم في التنظيف والتبرج . واحد يقفل أذنيه بأصابعه عندما يغطس بانتظام ثم يرحل ، آخر لا يغامر بغطسة كاملة ، بل يكتفي بتكرار عصر منشفة مبلولة على رأسه . ثالث ينفض بحرص سطح غبار القاذورات عن نفسه بضربات سريعة بذراعيه ، ثم يغطس فجأة ، آخر يقفز من الدرجات العليا دون أي مقدمات ، في حين يهبط آخر درجة درجة ببطء وهو يتمتم صلاته الصباحية . ثم كان هناك من هو دائماً في عجلة من أمره يهرول إلى بيته بسرعة حالما ينتهي من غطسته ، وآخرون على عكسه تماماً يتبعون حمامهم الممتع بتدليك جيد ويبدلون ثياب الاستحمام المبتلة بأخرى نظيفة جافة ويلفون المئزر

الظل وضوء الشمس في السراء والضراء اللتيين تلقيهما هذه الخصلة المتشابكة .

لم يكن من المسموح لنا مغادرة البيت ، بالأحرى كنا نمنع حتى من الركض داخل البيت . كان علينا أن نلمح الطبيعة من خلف الحواجز . وراء متناولي كان يمتد الشيء اللامحدود المسمى الخارج الذى تأتي ومضاته وأصواته وشذاه حيناً وتلمسني بين فينة وأخرى . كأنه يود أن يغويني عبر مصراع النوافذ بإيماءات متنوعة ، غير أنه طليق وأنا مقيد ، وما من سبيل للقائنا ، لذا كانت جاذبيته أقوى . اليوم زال أثر الخط الطبشوري ، إلا أن الدائرة المقيدة لاتزال قائمة . لايزال الأفق بعيداً وما خلفه وراء متناول اليد . يذكرني هذا بالقصيدة التي نظمتها عندما أصبحت أكبر :

كان الطير الأليف في القفص ، والطليق في الغابة

شاء القدر أن يتقابلا يوماً

صاح الطير الحر «دعنا نطير إلى الغابة ياحبيبي»

همس طير القفص «تعال هنا ، دعنا نعيش معاً في القفص»

قال الطير الحر «بين القضبان حيث لامكان لنا لفرش أجنحتنا؟»

«واحسرتاه» أجاب طير القفص « أنا لا أعرف أين أحط في السماء» .

كانت حواجز شرفة سطح بيتنا أطول مني . كنت أصعد أحياناً إلى هناك في منتصف النهار ، عندما أصبحت أطول قامة وخف استبداد

الخدم ، وعند وصول عروس جديدة إلى البيت وحصولي على اعتراف كمرافق لها ، في تلك الساعة يكون كل من في البيت قد انتهى من تناول وجبته ، وحلت فترة راحة من أشغال البيت ، وخيم هدوء القيلولة على المقصورات الداخلية ، في حين تعلق ملابس الاستحمام المبتلة على حاجز الشرفة لتجف ، وتلتقط الغربان من كومة المخلفات الملقية في ركن الحديقة فتات الطعام ، وفي عزلة يتواصل طير القفص والطير الطليق بمنقاريهما .

كنت أحب الوقوف والنظر ، تقع عيوني أولاً على صف شجر جوز الهند في أقصى حديقتنا الداخلية التي أرى عبرها حديقة سنجهي بمجموعة أكواخها وحوض استحمامها على حده ملبنة حلابتنا تارا ، وخلف ذلك تختلط بذوائب الأشجار الأشكال المختلفة والمستويات المتباينة لشرفات أسطح كلكتا المشعة تحت بياض شمس منتصف الظهيرة ، والممتدة بعيداً والمتداخلة بالزرقة الرمادية للأفق الشرقي . تبدو بعض هذه المنازل البعيدة التي يخرج منها درج مغطى إلى السطح مثل أصابع مرفوعة توحي إليّ بغمزة توحي بوجود ألغاز في الأسفل ، يتخيل المتسول الواقف على باب القصر وجود كنوز مستحيلة في حجره الحصينة . من العسير عليّ وصف روح الحرية والمرح التي تثيرها هذه المنازل المجهولة في نفسي . في أقصى أعماق المساء المكتظة بضوء الشمس الحارق ، قد يتأتى لي بصعوبة اكتشاف الصرخة الحارة الواهنة لطائرة ورقية ، ومن الممر الضيق المحاذي لحديقة سنجهي تمر البيوت

الهاجعة في سبات الظهيرة ، وتتردد طافية أغنية بائع الأساور والخلاخل الرتيبة -أساور ، خلاخل ، أساور- في مثل تلك الأوقات يطفو أيضاً كامل كياني بعيداً .

كان والدي في ترحال دائم ونادراً مايتواجد في البيت . لذا تبقى حجرة في الطابق الثالث مقفلة . كنت أمر بيدي على مصارع النوافذ الفينيسية ، أفتح مزلاج الباب وأقضي ما بعد الظهيرة مستلقياً على الأريكة في الجهة الجنوبية دون حراك . كون الغرفة المقفلة دائماً مثيرة ، ومن ثم إغراء الدخول المسروق بنكهته الغامضة ، وأخيراً لأن الشرفة الخارجية المهجورة تسطع عليها خيوط أشعة الشمس ، كل ذلك أطلق عنان أحلامي .

ثمة شيء فاتن آخر . لقد شرعت محطة المياه في كلكتا في العمل ، ولم تحرم من تدفق مياهها المظفر حتى المناطق الهندية . في ذلك الزمن الذهبي كانت أنابيب المياه تصل حتى إلى حجر والدي في الطابق الثالث . كان لي بفتح صنبور دشه أن أخذ حمّام يجلب الغبطة إلى قلبي في أي وقت أشاء ، ليس ذلك بسبب الحس بالماء فقط ، بل لإشباع رغبتي في فعل ما أهواه . جعل تزامن الابتهاج بالحرية والخوف من اكتشاف أمري ، دش ماء البلدية هذا يبدو كسهام من المتعة .

ربما لأن أمكانية الاتصال بالخارج كانت بعيدة ، فإن إثارتها جاءت الي بأسرع ما يمكن . حين تحيط بنا الأشياء وتكون في متناول كل يد ، يصيب العقل الخمول ويوكل المهمات بالآخرين وينسى أن فرحة العيد

تعتمد على الغذاء الذي تقدمه المخيلة أكثر من الأشياء الخارجية . هذا هو الدرس الأساسي الذي على الطفولة أن تعلمه للإنسان . من ثم تصبح ممتلكاته قليلة وتافهة ، إلا أنه لايحتاج لأكثر منها حتى يكون سعيداً . بالنسبة للطفل غير المحظوظ الذي يملك عدداً لايحصى من الألعاب ، عالم اللعب مُفسدٌ .

دعوة حديقتنا الداخلية حديقة ، تجاوزٌ بعيد عن الحقيقة ، فهي تتألف من شجرة كبّاد وبعض أشجار الخوخ المختلفة وصفٌ من شجر جوز الهند . في وسطها دائرة مبلطة مشققة هاجمتها الأعشاب والحشائش البرية ونسجت فيها راياتها المظفرة . الزهور التي رفضت الموت رغم إهمال البستاني ، هي التي استمرت في أداء مهمتها فقط ، في الركن الجنوبي سقيفة نزع قشر الأرز التي يحتشد فيها سكان المقصورات الداخلية عند الحاجة . انهزم هذا الأثر الأخير للحياة الريفية في كلكتا وانسل خلسة بعيداً بصمت .

رغم ذلك لا أظن أن جنة عدن كانت أعظم من حديقتنا ، لأن آدم كان عارياً كجنته ، ذلك لأنهما لم يكونا بحاجة لزخرف الأشياء المادية . فقط منذ أن تذوق ثمرة شجرة المعرفة وحتى الوقت الذي استطاع فيه هضمها أصبحت حاجة الإنسان للزخارف الخارجية تسيطر عليه . كانت حديقتنا الداخلية فردوسي وتفي بحاجتي .

أذكر بجلاء كيف كنت أركض إليها حالما أستيقظ مبكراً في فجر الخريف ، فتسرع في استقبالي نفحة الأعشاب وأوراق النبات الندية ،

ويختلس الصباح بضوئه المنعش مني لمحة من على جدار الحديقة الشرقية ومن تحت شُرابات أشجار جوز الهند المرتعشة .

ثمة قطعة أرض خالية أخرى في شمال البيت لاتزال حتى يومنا هذا كنا ندعوها «جولاباري» . يدل الاسم عل إنها كانت في زمن ماضٍ بعيد الزريبة التي يخزن فيها محصول السنة من الحبوب . في تلك الأيام كانت القرى والمدن تشبه بعضها بعضاً مثل الأخ وأخته في الطفولة . الآن يصعب تقصي الشبه في العائلة . كانت هذه القطعة مأواي في أيام العطل . لم أذهب إليها لألعب ، بل لان المكان بحد ذاته جذبني إليه . لماذا؟ من الصعب الإجابة . ربما يعود سحرها لكونها قطعة أرض يباب مهجورة في الركن البعيد من الحديقة . لم يكن لها وظيفة فعالة لأنها خارج الجزء المستعمل ، علاوة على إنها عديمة النفع مثلما هي غير مزينة ولم يزرع أحد فيها شيئاً إطلاقاً . كانت قطعة أرض مهجورة . لاريب أن هذا ما أطلق لمخيلة الصبي عنانها . كنت كلما رأيت منفذاً من يقظة حارسي أذهب إليها بأي وسيلة ، آنئذ يخالجني شعور بأني في عطلة حقيقية .

مع ذلك بقيت منطقة أخرى في بيتنا لـم أنجح في اكتشافها ، أطلقت عليها طفلة صغيرة من أترابي ورفيقة في اللعب اسم «قصر الملك» . كنت هناك من لحظة «كانت تقول لي أحياناً ، لكن لسبب أو لآخر لم تسنح لها الفرصة إطلاقاً لأصطحابي معها إلى هناك . قيل إنه مكان رائع فيه دُمى خرافية مثل الألعاب التي تلعب هناك . خيِّل لي أنه في

مكان قريب ، لعله في الطابق الأول أو الثاني ، غير أني عجزت عن الوصول إليه .

كم مرة سألت صديقتي «اخبريني فقط ، هل هو في داخل البيت حقاً أم خارجه؟» ودائماً تجيب «كلا ، كلا ، إنّه هنا في هذا البيت .» كنت أجلس وأتعجب» أين؟ أين؟ ألا أعرف كل حُجَر البيت؟ ! «لم أكترث إطلاقاً لأتحرى من هو ذلك الملك ؛ بقي قصره غير مكتشف حتى يومنا هذا ، وكل مانعرفه أنه موجود في بيتنا .

حين أنظر للخلف إلى طفولتي ، يتراءى لي أن الفكرة المهيمنة أكثر من غيرها هي أنني كنت محاطاً بالغموض . شيء لم يحلم به كان متوارياً في كل مكان وكان السؤال الملح « متى ! أواه متى سنصادفه؟» كما لو أن الطبيعة قبضت على شيء في يديها وسألت مبتسمة «ماذا تظن بحوزتي؟» لم تكن لدينا أدنى فكرة لإمكانية وجود حد للإجابة .

أذكر بجلاء شجرة سفرجل هندي زرعتها وسقيتها كل يوم وحافظت عليها في ركن الشرفة الجنوبية . أبقتني فكرة أن بذرة قد تنمو فعلاً لتصبح شجرة في حالة ترقب هائج . لاتزال بذور السفرجل الهندي حتى يومنا تتبرعم وتنمو بسرعة ، لكن دون شعور التعجب والاستغراب الملازم . لايقع الخطأ على كاهل شجرة السفرجل وإنما علي تفكيري .

سرقنا مرة بعض الحجارة من حوض زراعة ابن عم أكبر منا ، وعمّرنا واحدة صغيرة خاصة بنا ، أولينا النباتات التي بذرناها في صدوع

حوضنا اهتماماً كبيراً لحد يمكن فيه للخضار الرواقي* فقط أن يبقى حياً . تعجز الكلمات عن التعبير عن الإثارة التي خلقتها هذه الرابية الصغيرة في نفوسنا . لم نشك لحظة في أن ما خلقناه يستثير الكبار ويحوز على إعجابهم . لكن في اليوم الذي حاولنا فيه إثبات ذلك ، اختفت رابيتنا بكل صخورها وخضارها من ركن حجرتنا .

صدمنا للطريقة الجلفة الفظة التي أفصح لنا بها أن أرضية غرفة المدرسة ليست القاعدة المناسبة لبناء رابية زراعية . حط ثقل مماثل للحجارة التي رفعت عن الأرضية على عقولنا عندما أدركنا سعة الهوة التي تفصل أحلامنا عن إرادة من هم أكبر منا سناً .

ياالحدة نبض الحياة بالنسبة لنا ! ! الأرض والماء وأوراق النبات والسماء كلها خاطبتنا ولم تؤخذ بعين الاعتبار . كم مرة صدمنا وأصابنا الندم الشديد لأن ميسورنا رؤية السطح العلوي للأرض فقط دون أي معرفة ببواطنها ! ! وجهت مخططاتنا إلى تفحص ما تحت غطائها الغباري الملون . لو قدر لنا أن نحفر بخيزرانة تلو الأخرى ، واحدة فوق الأخرى ، لربما كان بإمكاننا أن نلمس أعمق أعماقها .

خلال احتفال Magh ، كانت توضع سلسلة من الأعمدة الخشبية حول الساحة الخارجية لدعم الثريات . يبدأ حَفْر حُفَر لهذه الأعمدة في أول أيام الاحتفال . يثير الإعداد للاحتفالات الأطفال في كل

* الرواقي : نسبة إلى مذهب زينون الفلسفي القائل بأن على الإنسان الحكيم أن يتحرر من كل أنواع الانفعالات وأن يخضع لحكم الضرورة القاهرة (المترجم)

الأمصار ، لكن لعملية الحَفْر هذه نكهة خاصة بالنسبة لي . رغم مشاهدتي لها سنة تلو سنة ورؤية الحفرة تكبر وتصبح أعمق حتى يختفي فيها الحافر تماماً ، فإن ذلك شيء عادي ، ولم يظهر شيء يستحق البحث عن أمير أو فارس ، لكن في كل مرة كان يلازمني شعور أن طبقة سترفع لتكشف عن صندوق فيه كنز . لا ريب أن حفراً أعمق بقليل سيكشف عن ذلك ، تتالت السنين ولم يثمر الحفر الأعمق شيئاً . خدش حجاب الغموض لكنه لم يرفع . لماذا يرضى الكبار القادرون على فعل كل مايودون بمثل هذا الحفر الضحل؟ ! لو أننا جيل الصغار ، نملك ناصية الأمور ، لما ظلت أعمق ألغاز الأرض مخفية لأمد طويل .

أثارت مخيلاتنا أيضاً فكرة أن خلف كل جزء من قبة السماء الزرقاء تقبع أسرار السموات . صعقنا يوم أراد مدرسنا أن يوضح بعض الدروس من كتاب العلوم التمهيدية البنغالي وأخبرنا أن السماء ليست نجماً أزرقَ محدوداً . قال« ضع سلماً فوق الآخر واصعد عليها ولن يضرب رأسك أبداً» قلت في سريرتي لا بد أنه يعني سلالمه ، وجهرت بصوت ذي نبرة ساخطة «وماذا لو وضعنا سلالم أخرى أكثر وأكثر؟» . عندما أدركت أن وضع السلالم فوق بعضها البعض عملية غير مثمرة ، صعقت . طبعاً توصلت بعد تأمل كبير إلى أن مثل هذه الحقيقة الصاعقة هي جزء من سر معرفة المدرسين المعروفة لديهم فقط .

4

سلطة الخدم

لم يكن نظام حكم سلالة الخدم في تاريخ الهند نظاماً سعيداً . في تاريخي الشخصي لا أجد أمراً مبهجاً أو مجيداً لسرده حول عهد الخدم . حدثت بعض التغيرات في الحكام ، لكن لم يكن هناك قطعياً أيما فارق في قوانين الكبح والعقاب التي ابتلينا بها . لم تسنح لنا الفرصة آنئذ لفلسفة الموضوع ؛ لقد تحملنا بكل ما في وسعنا الضربات التي حلت على ظهورنا ، وارتضينا كأحد قوانين الوجود أن الكبير يؤذي والصغير هو الذي ينزل به الأذى . استغرقتني الفكرة المعاكسة بأن الكبير يعاني والصغير هو الذي يسبب العناء مدة طويلة لتعلمها .

لا ينظر أي صياد مهما كانت غايته إلى الأمور من وجهة نظر الطير وعليه فإن الطير اليقظ الذي يحذر سرب الطيور بصوت عالٍ قبل أن يُطلق عليها الرصاص هو من يزجر بقسوة . حين نضرب نولول ، الأمر الذي لا يقره مؤدبونا ؛ من وجة نظرهم هذا تحريض علي الفتنة ضد سلطة الخدم ، كم أذكر محاولاتهم لكبت عويلنا بحشر رؤوسنا في أقرب إبريق ماء . لاريب أن صرخات احتجاجنا كانت مزعجة جداً لحد لم يكن بوسع أحد تجاهلها . اليوم ، أتساءل أحياناً لماذا كان الخدم

يعاملوننا بمثل هذه القسوة !! لا أستطيع أن أقر بوجود أي بادرة في سلوكنا العام وتصرفنا يستوجب وضعنا خارج حظيرة اللطف الإنساني . يعود السبب الحقيقي إلى إلقاء عبء حملنا كله على عاتق الخدم ، الأمر الذي يصعب تحمله حتى من أقرب الناس إلينا وأعزهم علينا . لو سمح للأطفال بأن يكونوا أطفالاً ، يركضون ويلعبون ويشبعون حب استطلاعهم ، لأصبح وطء العمل أخف بكثير . تحل المشاكل التي يستعصي حلها إذا حاول شخص حجز الأطفال في الداخل وإبقاءهم ساكنين أو إذا منعهم من اللعب ، عندها تصبح الطفولة مرهقة وتلقي بثقلها على كاهل المربي مثل قصة الحصان الذي يحمله الحمالون عوض السماح له بالعدو على قدميه ؛ ورغم أن النقود قد تشتري حمالين حتى لحصان ، فإنها لا تستطيع أن تمنعهم من صب جام غضبهم علي الحيوان سيء الحظ في كل خطوة .

لا أذكر عن طغاة طفولتنا إلا الصفع واللكمات ولا شيء آخر . واحد فقط شذ عنهم ، كان اسمه أشوار ، وعمل مرة كمعلم في مدرسة قروية . كان متأنقاً ، حصيف الشخصية ، وقوراً واعياً للتقاليد الدينية وتعاليمها . كانت الأرض تبدو له فظة وماؤها أقل من أن يحفظها نظيفة . لذا انهمك في حرب ضروس ضد قذارتها المزمنة . يلقي بدلو مائه في الحوض بحركة سريعة حتى لا يأخذ حاجته من القعر الملوث ، ويبعد القاذورات من على سطح الحوض قبل أن يغطس فيه فجأة حين يستحم ، محاولاً أخذ الماء على حين غرة ، كانت ذراعه اليمنى ترتفع

لتشكل زاوية مع جسده حين يمشي ويحلو لنا أن نظن أنه لا يثق بعلم الصحة ولا حتى بملابسه ، ليلاً نهاراً يضع نفسه في وضع دفاعي دائم ضد أشكال التلوث غير المحدودة التي قد تتسلل عبر خطوط دفاعه وتفسد اتصاله بالأرض والماء والهواء وجعل أدنى اتصال لجسده بالعالم أمراً لا يطاق .

كان وقار سلوكه غير قابل للفهم . يلفظ الكلمات المختارة بعناية وتصنُّع بصوت جهوري ورأسه منحنٍ قليلاً . كان أسلوبه الأدبي مدعاة للضحك عند بالغي أسرتنا ، وبعض اصطلاحاته الطنانة منتشرة في عائلتنا كملح ظريفة . لست واثقاً من كون تعبيراته غريبة اليوم ؛ إذ اللغة الأدبية واللغة المحكية اللتين كانتا متباعدتين بعد الأرض عن السماء ، تبدوان اليوم أكثر تقارباً .

اكتشف المدرس السابق هذا طريقة لحفظنا هادئين في المساء ، وذلك بجمعنا حول مصباح زيت الخروع المتصدع والقراءة بصوت مرتفع قصصاً من «رامايانا» ومن «ماهابهاراتا» ، كان بعض الخدم ينضم إلى جمهور المستمعين أيضاً . كان المصباح يلقي بظلالنا الضخمة عالياً على عوارض السقف الخشبية ويكشف سحالي البيت الصغيرة وهي تصطاد الحشرات على الجدران ، والخفافيش تدور راقصة رقصة شيطانية خارج الشرفة بينما نحن نجلس في صمت نستمع بتعجب فاغري الأفواه .

لا زلت أذكر المساء الذي وصلنا فيه إلى قصة كوشا ولابا التي يعد

فيها هؤلاء الشباب الأبطال أنفسهم لسحق سمعة والدهم وأعمامهم ؛ كان صمت تلك الحجرة المظلمة مطبقاً متوتراً ، والوقت متأخراً ، وفترة صحونا المقررة علي وشك الانتهاء ، والقصة لا تزال طويلة . في تلك اللحظة الحرجة جاء رفيق والدي العجوز وأنقذنا ؛ حيث أنهى الفصل بسرعة هائلة على وقع خطوات البايار وقصائد دارشورايا السريعة . ألقي جانباً بأغنية كريتيفاس الناعمة البطيئة المكونة من أربعة عشر مقطعاً عروضياً ، وأوقعنا تناغم الجناس وصوت القافية المتنافر في ورطة بائسة .

في بعض الأحيان ، كانت هذه النصوص القديمة تثير النقاش والتأويل اللذيْن ينهيهما أشوار بقرار مطولٍ ينم عن عمق التفكير ، ورغم كونه أحد خدم الأطفال فقط ، أي أدنى مرتبة من كثيرين في البيت ، إلا أنه مثل الجد العجوز بهيشما في «ماهابهاراتا» ، يؤكد أولوية منزلته وجدارتها من مقعده المتواضع تحت من هم أعلى منه .

لحارسنا المميز الرفيع هذا نقطة ضعف واحدة أشعر بأن عليّ أن أشير إليها من أجل الدقة التاريخية ، كان يتعاطى الأفيون ، الأمر الذي يجعله يتوق بشدة إلي الطعام الدسم ، لذا عندما كان يجلب لنا الحليب في الصباح ، على عكسنا لا تنفر نفسه منه بل يجذب إليه بقوة ، إذا أشرنا بأقل بادرة لاشمئزازنا الطبيعي منه ، لا يحثه أي شعور بالمسؤولية والحرص على صحتنا للضغط علينا مرة ثانية .

كانت تساوره شكوك كبيرة حول قدرتنا على تقبل الغذاء الحقيقي .

كان يجلس على مائدة عشائنا التي عليها كمية كبيرة من اللوشيس في طبق خشبي مدور سميك ، وبعد أن يبتعد إلى أعلى بما فيه الكفاية حتى يقي نفسه من التلوث ، يقوم بسكب قليلٍ من الطعام في كل صحن بنشاط وكأنه هبة منتزعة من الآلهة جزاء كفارة قدمها إنسان تعبيراً عن توبته ، لم تكن هناك أدنى إشارة إلى واسطة أو تفضيل أو إفراط في الكرم . بعد ذلك يأتي التساؤل في ما إذا كنا نريد أكثر . كنت أعرف الإجابة التي ترضيه كثيراً ولا أقدر على حرمانه منها ، لذا لا أطلب صحناً آخر .

علاوة على ذلك كان أشوار مؤتمناً على مخصص مصروفنا اليومي ، ليقدم لنا وجبة خفيفة بعد الظهر . يسألنا كل صباح ماذا نحب أن نأكل . كنا نعلم أن ذكر أرخص المواد يعتبر أفضل إجابة ، لذا كنا نطلب أحياناً وجبة خفيفة أو فطيرة أرز ، وأحياناً أخرى جراماً مسلوقاً غير قابلٍ للهضم أو شواء جوز هند مطحون . من الجلي أن أشوار لم يكن حريصاً جداً على طعامنا كحرصه على قوتنا الروحي .

5

المدرسة النظامية

اكتشفت عندما كنت في المدرسة الشرقية طريقة للخلاص من مذلة كوني تلميذاً ، لقد شرعت في تدريس فصل خاص بي في أحد أركان شرفتنا . كانت الأعمدة الخشبية تلاميذي وأنا أقوم بدور المدرس . أجلس على كرسي أمامهم وفي يدي عصا . كنت قد قررت من هم التلاميذ المجتهدون ومن هم الكسالى ، وكنت أميز حتى بين الهادئين والأشقياء ، والأذكياء من الأغبياء بوضوح . لقد عانت أعمدة الشرفة كثيراً من ضربي المستمر لها لدرجة إنها كانت تتمنى التخلي عن أرواحها لو كان فيها حياة .

كنت كلما تعاظم خوفها من جراء ضرباتي كلما ازددت غضباً ، حتى لم أعد أعرف كيف أعاقبها بما فيه الكفاية . لم يبق أحد من أفراد ذلك الفصل الأغبياء المساكين ليكون شاهداً على عظمة تسلطي عليهم ، فلقد حل مكان تلاميذي الخشب أعمدة حديدية مسبوكة ولم يتبنّ الجيل الجديد الأسلوب القديم في الدراسة ولو أنهم حاولوا ، لما قدر لهم تحصيل نفس النتائج . منذ ذلك الحين أدركت أن الحصول على الأسلوب أيسر بكثير من جوهر التدريس ، دون جهد استوعبت

كل نفاذ الصبر والانفعال السريع والمحاباة والظلم الذي أبداه من درسوني .

كل عزائي أني لم أملك القوة للتنفيس عن هذه البربرية ، وصبّ جام غضبي على أي مخلوق رقيق الحس . مع ذلك لم يكن الفرق بين تلاميذي الخشب وتلاميذ المدرسة الشرقية ليعيق نفسيتي ويقف حاجزاً أمام جعلها مماثلة لمدرسيها .

لا بد أني لم أقضِ وقتاً طويلاً في المدرسة الشرقية لأني كنت لا أزال في سن غضة عندما التحقت بالمدرسة النظامية . السمة الوحيدة التي أذكرها عنها هي توجب جلوس الطلاب في صفوف في رواق المدرسة قبل بدء الدروس لغناء وترتيل بعض الأشعار . من الجلي إنها محاولة لإضفاء مسحة من المرح والبهجة على الروتين اليومي .

من سوء الحظ ، كانت الكلمات بالانجليزية ، واللحن نوعاً ما أجنبياً ، لذا لم تكن لدينا أدنى فكرة أيٌّ نمط من التعويذة نمارس ، ولم نفهم الرتابة عديمة المعنى التي قصد بها جلب السرور إلى قلوبنا . لكن ذلك فشل في تعكير صفاء رضا سلطات المدرسة عن نفسها لتوفير مثل هذه المتعة لنا . كانوا يعتبرون السؤال عن التأثير العملي لهبتهم السخية تجاوزاً غير ضروري ، ربما دعوا سعادة المرء جريمة . كانوا قانعين بأخذ الأغنية كما وجدوها ، بكلماتها وكل شيء ، من نفس الكتاب الإنجليزي الذي أمدهم بالنظرية .

لا ريب أن اللغة التي حللت بها هذه الإنجليزية نفسها في أفواهنا

تثقيفية على الأقل بالنسبة لعلماء فقه اللغة . أستطيع أن أذكر سطراً واحداً فقط Kallokee Pullokee Singill Mellaling Mellaling Mellaling بعد تفكير طويل أصبح بميسوري حزر أصل مقطع منها Kallokee لا تزال تحيرني ، غير أني أظن أنه : Full of glee, singing Merrily, merrily, merrily «طرب ، أغني بمرح ، بمرح ، بمرح . .»

وحيث أن ذكرياتي عن المدرسة النظامية تنبع من ضباب وتصبح أوضح ، إلا إنها ليست جميلة بأي حال من الأحوال . لو كان بإمكاني أن أصادق بعض الأولاد الآخرين ، لما كان التعليم مهمة لا تطاق . لكن ثبت في النهاية أن ذلك مستحيل . كانت معظم سلوكياتهم وعاداتهم بذيئة جداً ، لذا كنت أذهب في فترات الراحة بين الدروس إلى الطابق الثاني وأقتل الوقت جالساً قرب نافذة تطل على الشارع . كنت أحصي السنين : سنة ، سنتان ، ثلاث سنين ، أتساءل كم بقي عليّ من مثيلاتها .

أذكر فقط أحد المدرسين الذي كانت لغته بذيئة لدرجة جعلتني أرفض بإصرار الإجابة على أي من أسئلته ، من منطلق احتقاري له . لذا جلست صامتاً طوال السنة في أدنى مرتبة في صفه . وفي الوقت الذي ينشغل بقية التلاميذ ، كنت أترك وحيداً لحل كثير من الأسئلة المعقدة .

أذكر واحدة من هذه المسائل التي فكرت بها متأملاً بعمق وهي كيف

أهزم عدواً دون سلاح . أذكر انهماكي للآن في هذه المعضلة وسط همهمة الأولاد وهم يتلون دروسهم . حسبت لو أني أستطيع تدريب بعض الكلاب والنمور والحيوانات الكاسرة الأخرى بشكل جيد ، وأصنع منها بعض الخطوط القتالية في ساحة المعركة لصنعت منظراً رائعاً للبدء في القتال . بعد ذلك يؤول الأمر إلى بسالة جنودي لتحقيق النجاح . تصورت هذه الاستراتيجية البسيطة الرائعة بوضوح ، وأصبح نصر جانبي مؤكداً لا شك فيه .

حيث أن العمل لم يأت إلى حياتي بعد ، وجدت من السهل القفز إلى إنجاز الأمور عبر طرق قصيرة . منذ أن بدأت العمل ، وجدت أن ماهو عسير هو عسير حقاً ، وما هو صعب يبقى صعباً . طبعاً لا يبعث هذا على الراحة ، غير أنه لايقرب في سوئه الإزعاج الذي تسببه محاولة القفز عبر الطرق القصيرة .

أخيراً عندما انتهت سنة في هذا الفصل ، امتحنا في البنغالية من قبل باديت مادهو شووان فاشا سباتي . حصلت على أعلى مرتبة . اشتكى المدرس إلى ادارة المدرسة قائلاً إن في الأمر واسطة . لذا امتحنت مرة أخرى ومدير المدرسة جالس بجانب الممتحن . هذه المرة أيضاً حصلت على المرتبة الأولى .

6

نظم الشعر

لم أكن قد تجاوزت الثامنة حين ذاك . كان جيوتي ابن بنت عمتي يكبرني سناً وله مدخل على الأدب الإنجليزي . يلقي مناجاة هملت لنفسه بحيوية بالغة . لا أدري ما الذي أدخل في رأسه فكرة أن مجرد طفل مثلي يمكنه أن ينظم شعراً . أرسل في طلبي بعد ظهر يوم ما وسألني أن أحاول نظم قصيدة ، بعد أن شرح لي بناء وزن قصيدة البايار ، ذات الأربعة عشر مقطعاً .كانت القصائد حتى ذلك الوقت شيئاً أراه في الكتب فقط ، دون أي أخطاء مشطوبة أو إشارة شك ظاهرة أو جهد أو ضعف إنساني . لم أجرؤ على تصور أي محاولة من جانبي لتقديم قصيدة من ذلك القبيل .

في أحد الأيام ألقي القبض على لص في بيتنا . دفعني فضولي لإلقاء نظرة عليه وأنا أرتجف ريعة . كان مجرد رجل عادي ! خالجني شعور بالشفقة حين عامله حارس بوابتنا بقسوة . تجربتي في الشعر كانت مماثلة لذلك . وجدت بعد أن ربطت بعض الكلمات معاً وفق إرادتي إنها تحولت إلى قصيدة بايار ، وأحسست أنه لم تبق عندي أوهام مضللة حول أمجاد نظم الشعر . الآن حين أرى إساءة استعمال الشعر

المسكين ، يتتابني شعور بالشفقة والرثاء ، كثيراً ماجعلني أكبح الأيدي غير الصبورة المتلهفة للانقضاض عليه . نادراً ما عانى اللصوص أكثر مما يعاني الشعر من قبل الكثيرين .

حالما تغلبت على مشاعر الرهبة الأولى ، لم يبقَ هناك مايمكنه أن يوقفني . حصلت على دفتر بورق أزرق بفضل مساعدة أحد الموظفين في منزلنا ، سطرت به خطوطاً بيدي دون انتظام وشرعت في كتابة القصائد بعجلة كبيرة .

مثل غزال صغير ينطح بقرونه النامية حديثاً هنا وهناك ، كنت وبراعم شعري الناشيء نسبب الأذى والإزعاج إلى أنفسنا وأكثر إلى أخي الأكبر الذي أجبره فخره بأدائي لاصطياد المستمعين من كل أرجاء البيت .

أذكر يوماً كنا خارجين فيه من مكاتب إدارة ممتلكاتنا في الطابق الأرضي بعد حملة غزو ضد الموظفين ، وصادفنا محرر الصحيفة الوطنية National Paper نابا جوبال ميترا ، الذي كان قد دخل البيت من لحظة . خاطبه أخي بصراحة دون أي لغط «نابا جوبال باهو ! كتب رابي قصيدة ، عليك أن تسمعها» على الفور تبعت القراءة .

لم تكن أعمالي بعدُ غزيرة . كان بإمكان الشاعر أن يحمل كل إسرافه في التعبير عن عواطفه في جيوبه . كنت كاتباً وطابعاً وناشراً في آن واحد . وكان أخي ، مسؤول الدعاية ، زميلي الوحيد . ألقيت على نابا جوبال بابو بعض القصائد التي نظمتها على اللوتس قرب أسفل

الدرج بصوت يتأجج في علوه وانخفاضه مثل حماسي ، «عمل جيد» قال مبتسماً «لكن ما معنى Dwirepha؟» كان للكلمة نفس عدد مقاطع كلمة Moumachhi التي تعني نحلة في اللغة الدارجة . كيف حصلت على هذه الكلمة ، لم أعد أذكر إلا أنها الكلمة الوحيدة في كل القصيدة التي علقت عليها آمالي . لم يكن هناك شك في أنها تركت انطباعاً جيداً لدى الموظفين . لكن مما يثير الاهتمام أن نابا جويال بابو لم يستسلم لها ، على العكس تماماً ، ابتسم . كنت على يقين أنه لا يمكن أن يكون رجلاً متفهماً . لم أقرأ عليه شعري بعد ذلك إطلاقاً . أضفت كثيراً من السنوات إلى عمري منذ ذلك الحين ، لكنني لم أفلح في تحسين اختباري لمن هو خبير في إطلاق الأحكام النقدية ومن هو ليس كذلك . رغم ذلك ، مهما ابتسم ناباويال بابو فإن كلمة Dwirepha بقيت مثل نحلة أثملها العسل ، مغروزة في موضعها

/

الدروس المتنوعة

كان أحد مدرسي المدرسة النظامية يعطينا دروساً خاصة في البيت أيضاً من الساعة السادسة إلى التاسعة والنصف صباحاً . كان جسمه نحيلاً وجافاً وصوته حاداً ويبدو مثل تجسيد لعصا . كانت دروسنا معه تتراوح من كتب قراءة الأدب الشائع والعلوم في البنغالية إلى ملحمة ميجهنا باره .

كان أخي الثالث حريصاً على توفير معرفة متنوعة لنا ، لذا كان علينا أن ندرس في البيت أكثر بكثير مما هو مقرر لنا في مناهج المدرسة . كنا نستيقظ قبل انبلاج الفجر ، ونشرع في مباراة قتالية أو اثنتين مع مصارع خفي ونحن ملتفان بالمئزر . ثم دون توقف نضع قمصاننا فوق أجسامنا المغبرة ونبدأ في دراسة الأدب والرياضيات والجغرافيا والتاريخ . عند عودتنا من المدرسة نجد مدرسي الرسم والرياضة البدنية جاهزين في انتظارنا . في المساء يأتي أجهور بابو لإعطائنا دروساً في الإنجليزية ولا يطلق سراحنا قبل الساعة التاسعة .

في أيام الآحاد كنا نأخذ دروساً في الغناء مع فميشنو ، ثم يأتي سيتاناث دوتا كل أحد تقريباً ليشرح لنا دروس العلوم الطبيعية مدعومة

بالأمثلة والتجارب . كانت هذه الدروس الأخيرة تثير اهتمامي جداً . أذكر جيداً شعور الدهشة الذي انتابني عندما وضع قارورة زجاجية على النار فيها قليل من الماء ونشارة الخشب ، وبين لنا كيف يصعد الماء الحار المخفف إلى أعلى ويهبط الماء البارد إلى أسفل وكيف يبدأ الماء أخيراً في الغليان . شعرت أيضاً بالبهجة العظيمة في اليوم الذي تعلمت فيه أن الماء قابل للفصل عن الحليب وأنه يثخن عندما يغلي لأن الماء يحرر نفسه من المزيج المرتبط عبر البخار . لم نشعر أن يوم الأحد يوم أحد إلا إذا جاء فيه ستياناث .

كان هناك وقت يدرسنا فيه طالب من مدرسة كامبل الطبية عن عظام الإنسان ، وعن سبب وجود هيكل عظمي مربوطة فيه العظام معاً بأسلاك ، معلقاً في غرفة فصلنا . وأخيراً وُجدَ وقت أيضاً لبانديت هيرامبا تاتواراتنا ليأتي ويعلمنا قوانين قواعد اللغة السينسكريتية عن ظهر قلب دون فهم . لست متأكداً هل أسماء العظام أم حكمة النحوي كانت أصعب على التلفظ . لعل الثانية هي التي حصلت على سعفة النصر .

شرعنا في تعلم الإنجليزية بعد أن حققنا تقدماً معتبراً في دراستنا اللغة البنغالية . كان أجهور بابو ، مدرسنا للغة الإنجليزية يدرسنا في المساء لأنه ملتحق بالكلية الطبية .

يقال لنا إن اكتشاف النار واحد من أعظم اكتشافات الإنسان . لا شك عندي في ذلك ، غير أني لا أستطيع التغلب على مشاعري بأن الطيور

الصغيرة محظوظة لأن آباءها لا يقدرون على إشعال المصابيح في المساء ، ولأنها لا تأخذ دروسها اللغوية باكراً في الصباح . لا بد أن سرورها باد للجميع ، طبعاً علينا أن لا ننسى إنها لا تتعلم اللغة الإنجليزية .

حافظ مدرسنا ، طالب الطب ، على صحة جيدة لدرجة لم يكْف تآزر أمنيات تلاميذه الثلاثة الحماسية لتجعله يغيب ولو ليوم واحد . مرة واحدة لزم الفراش عندما حدث قتال بين الطلاب الهنود والطلاب الأوراسيين* في الكلية الطبية وألقي بكرسي على رأسه . كان هذا الحادث المؤسف ولاريب كارثة لمدرسنا ، لكن وقعه كان مختلفاً بالنسبة لنا . في الواقع خالجتنا فكرة أن شفاءه السريع لم يكن ضرورياً .

في المساء ، يصب المطر بشدة مثل الرماح . ممر بيتنا الضيق تغمره المياه حتى أسفل الركبة . حوض الاستحمام يفيض بالماء في الحديقة وذوائب شجر السبيل الأشعث تقف كحارس فوق المياه ، وكلنا نشع طرباً كأريج السداة في زهرة الكادامبا ، فلقد حل وقت قدوم مدرسنا منذ بضعة دقائق ولم يأت ، لكن ما من شيء مؤكد بعد ، في انتظارنا نرقب ونحن جالسين الشرفة المطلة على الممر بنظرة حزينة . على حين غرة بدا كما لو أن قلوبنا هوت على الأرض بسقطة عظيمة مكتومة الصوت ، لقد دارت المظلة السوداء المعهودة حول ركن الحديقة ، غير

* الأوراسي : من كان أحد والديه اوروبياً والآخر هندياً(المترجم) .

مهزومة حتى ولا بمثل هذا الجو ! هل يمكن أن تكون مظلة شخص آخر؟ كلا ، لا يمكن ذلك . قد يوجد في العالم الشاسع شخص آخر يماثله في العناد ، لكن ليس في هذا الممر الضيق بالذات .

حين أنظر إلى الخلف ، إلى كل الفترة التي قضاها معنا ، لا أملك أن أقول أن اجهور بابو كان رجلاً قاسياً . لم يحكمنا بعصا ، ولم يصل حتى توبيخه إلى التعنيف ، لكن مهما كانت مميزاته الشخصية ، دروسه في المساء وموضوعه اللغة الانجليزية ، فاني على يقين أن حتى الملاك قد يبدو لأي طفل بنغالي مثل رسول ياما ، إله الموت ، إذا جاءه في آخر يوم بائس بعد المدرسة ، وأشعل مصباحاً خابياً يغم الصدر ليدرسه اللغة الإنجليزية .

بأي وضوح أستعيد ذكرى ذلك اليوم الذي حاول فيه مدرسنا أن يطبع في أذهاننا مفاتن اللغة الإنجليزية . ألقى على مسامعنا بعض الأسطر من كتاب إنجليزي بطلاوة زائفة عظيمة ، نثراً أم شعراً ، لم أعد أذكر ، كان لها تأثير غير متوقع إطلاقاً . لقد انفجرنا بالضحك لدرجة أنه صرفنا رأساً في ذلك المساء . أدرك ولاريب أنه يدافع عن قضية صعبة وإذا أراد لنا أن نقف في صفه فإن ذلك يستلزم نضالاً طويلاً قد يمتد لبضعة سنوات .

كان أجهور بابو يحاول أحياناً أن ينفخ بعض النسيم العليل من المعرفة الخارجية على مناهج فصلنا الروتينية المجذبة . أخرج يوماً رزمة من الورق من جيبه وقال «اليوم سأريكم عملاً رائعاً من صنع الخالق» ، ثم

جمع الغطاء ليقدم مقطعاً من القصبة الهوائية للإنسان واسترسل في شرح وتفسير بدائع آلية عملها .

لا زلت أذكر صدمتي . كنت أظن دائماً أن الإنسان ينطق بكامل جسده ولم أتخيل أبداً أن فعل الكلام قد يكون منفصلاً على هذا النحو . مهما كانت آلية هذا الجزء رائعة فإنها بالتأكيد أقل قيمة من الإنسان كله . لم أفصح عن ذلك في سريرتي بكلام كثير ، غير أنه كان سبباً لفزعي . لم يكن بوسعي التجاوب مع حماس حديث المدرس في ذلك اليوم ، ربما لأنه فقد رؤية تلك الحقيقة .

في يوم آخر ، أخذنا معه إلى غرفة التشريح في الكلية الطبية . كانت جثة امرأة عجوز ممددة على المشرحة . لم يزعجني ذلك كثيراً ، لكن ما أقلقني هو رؤية ساق مقطوعة ملقى بها على الأرض . بدت لي رؤية الإنسان مقطّعاً إلى شظايا أمراً مروعاً ، لا معقولاً ، لازمني الانطباع الذي خلفته تلك الساق السوداء عديمة المعنى لأيام عديدة جداً .

بعد الانتهاء من كتابي قراءة ساركار الإنجليزية الأول والثاني ، باشرنا بدراسة كتاب ماككولوش «درس في القراءة» ، كانت أجسامنا منهمكة في آخر النهار وعقولنا تتشوف إلى المقصورات الداخلية . كان الكتاب أسود وسميكاً بكلمات صعبة ولم يكن موضوعه أكثر جاذبية ، حيث أنه افتقر إلى حنان أم إلهة التعليم ساراسواتي . لم تكن كتب الأطفال آنئذ تعج بالصور مثل اليوم . علاوة على ذلك ، تصطف في بداية كل درس كلمات بمقاطع منفصلة وعلامات نطق بغيضة

منفرة كحفر بحراب مشرعة تسد الدرب أمام عقل الطفل . هاجمته مراراً صفوفها المسننة بلا طائل .

حاول مدرسنا أن يشعرنا بالعار بتعداده مآثر طلابه الآخرين . شعرنا بالندم في حينه دون أن نأخذ موقفاً عدائياً أو ودياً من هؤلاء الطلاب ، غير أن هذا الشعور لم يفلح في خلاصنا من الظلمة المتعلقة بذلك الجلد الأسود .

غرست العناية الإلهية ، من دافع رأفتها بالجنس البشري سحراً منوماً في كل الأشياء المضجرة . ما أن تكاد دروسنا الإنجليزية تبدأ حتى تأخذ رؤوسنا النعسة في الترنح . كان ذر الماء في عيوننا والركض حول الشرفة ملطفات مسكنة ذات تأثيرات قصيرة الأمد ، إذا حدث وأن مر أخي الأكبر ولاحظ نعاسنا وعذابنا ، يطلق سراحنا لما تبقى من المساء ، ولا يستغرق شفاؤنا من خمولنا سوى لحظة واحدة .

8

نزهتي الأولى

يوم تفشت حمى الضنك مرة في كلكتا ، كنا من بين جزء من عائلتنا الكبيرة التي اضطرت إلى اللجوء إلى دارة شهاتو بابو النهرية . كانت هذه نزهتي الأولى . رحبت بي ضفة نهر الجانجس وضمتني في حضنها كصديق قديم . هناك أمام قسم الخدم ، كانت أيكة من شجر الجوافة أقضي أيامي في فيئها ، ومن بين فرجات جذوعها أحدق في التيار المتدفق وأنا قابع علي الشرفة . كنت أشعر حين أستيقظ كل صباح بأن النهار آت إليّ مثل رسالة مذهبة الأطراف تفصح عن أخبار رائعة حالما أفض غلافها . أرش وجهي بالماء وأسرع إلى مقعدي في الخارج كي لا أفقد أي جزء منه . كل يوم كان هناك مد وجزر نهر الجانجس ، وحركات متنوعة لعدد كبير من القوارب المختلفة وتغير ظلال الأشجار من الغرب إلى الشرق ، وفوق ظل حد الغابة على الضفة الأخرى يتدفق دم الحياة الذهبي من صدر سمائه المغيَّب المطعون . كانت بعض الأيام غائمة من الصباح الباكر ، وترحل فيها ظلال الغابة السوداء الداكنة فوق النهر . ثم فجأة تأتي الأمطار الصاخبة ملطخة الأفق فيستأذن حد الضفة الأخرى المعتم بالانصراف باكياً ،

وقد ينتفخ النهر بجيشان مكتوم وتمرح الريح الرطبة بين أوراق الشجر . أحسست أن الجدران والعوارض التي تدعم الحجرة والروافد في السقوف المائلة تمنحني ولادة جديدة في العالم ، وحين تعرفت على الأشياء من مقربة ، اختفت قشرتها القذرة التي كونتها العادة والعرف . أنا على يقين أن طعم دبس السكر الذي كنت أتناوله مع اللوشيس البارد في الإفطار لا يختلف عن طعام الآلهة الذي كان يعبه أندرا ، رب الآلهة ، في سمائه ، لأن الخلود موجود في الذائق لا في الرحيق ، ولن يجده من يبحث عنه في مكان آخر .

كان خلف البيت منطقة مقفلة محاطة بجدران فيها حوض استحمام ودرجات تقود إلى الماء بمحاذاة شجرة جامبالان ضخمة تحيط بها مجموعة أشجار ثمار مختلفة كثيفة ، وفي ظلها يستكين الحوض بسرية . كان الجمال المحجب لهذه الحديقة الداخلية الصغيرة الخجولة سحراً رائعاً مختلفاً عن امتداد ضفة النهر الواسع في الأمام . كانت مثل عروس البيت في عزلة قيلولتها عند الظهيرة ، ترقد مرتاحة على لحاف متعدد الألوان طرزته بنفسها لتهمس بأسرار قلبها . قضيت كثيراً من ساعات الظهيرة تحت شجرة الجامبالان هذه وحيداً ، أحلم بمملكة ياكشاس المخيفة في أعماق الحوض . استحوذ عليَّ فضول عظيم لرؤية قرية بنغالية بسبب جاذبية مساكنها وأضرحة قديسيها وممراتها الضيقة ودرجات أحواض استحمامها ، وألعابها وتجمعاتها ، وحقولها وأسواقها ، وعالمها برمته كما رأيته في مخيلتي . كانت مثل هذه القرية

في الجانب الآخر من حديقتنا ، إلا إنها محظورة علينا . لقد وطئنا خارجاً لكن ليس للحرية . كنا في السابق سجناء ، والآن نجثم على سارية الطيور ، غير أن القيد لم يزل قائماً .

خرج في إحدى الصباحات اثنان ممن يكبروننا في جولة في القرية . لم أقدر على كبح رغبتي أكثر من ذلك ، تسلقت خلسة دون أن يراني أحد وتبعتهما لمسافة قصيرة . أثناء عبوري الممر المظلل ذي الحواجز المقفلة من شجيرات الشيوار الشوكية والمحاذي لحوض مغطى بطحالب الماء الخضراء ، رأيت وتشبعت بصورة جميلة إثر أخرى . لا زلت أذكر صورة رجل عار منهمك في حمام متأخر على حافة الحوض ينظف أسنانه بنهاية غصين ممضوغ . على حين غرة انتبه الرجلان إلى أني خلفهما «عد إلى البيت . عد حالاً» ويّخاني بقولهما وقد صدما . كنت حافي القدمين ولا أرتدي شالاً أو لباساً فوق قميصي . لم أكن جاهزاً للخروج وكأن ذلك خطأي . لم يثقل عليّ أبداً بلباس الجراب أو الكساء الزائد عن الحاجة ، لذا لم أرجع خائب الظن في ذلك الصباح فقط ، وإنما فقدت أي فرصة لإصلاح الإهمال وللسماح لي بالمغادرة خارجاً في أي يوم آخر .

سدت علي المنافذ الخلفية ، لكن في الأمام حررني نهر الجانجس من كل القيود . كان بإمكان فكري أن يثب إلى سطح أي قارب أراه يمخر عباب النهر وأرحل معه بعيداً إلى أراضٍ لم تذكر في أي جغرافيا مجاناً .

كان ذلك قبل أربعين سنة . لم أطأ حديقة هذه الدارة المظللة منذ ذلك الحين . لا بد أن نفس البيت القديم ونفس الأشجار القديمة لا تزال قائمة ، لكنني أعلم أن الحديقة لا يمكن أن تكون على حالها ، لأني أين أصبحت الآن لأستعيد نضارة الدهشة التي جعلتها ما كانت عليه؟ !

عدنا إلى بيت جوراسانكو الخاص بنا في المدينة ، لتصبح أيامي مثل لقم كثيرة تقدم ليقضمها ويبتلعها بلعوم المدرسة النظامية .

9

ممارسة الشعر

سرعان ما امتلأ الدفتر الأزرق ، مثل قفير حشرات ، بشبكة متنوعة من الخطوط المائلة وضربات الحروف السميكة والدقيقة ، وسرعان ماجعد أوراقه إلحاح الصبي الكاتب التواق ، ثم بلت أطرافه والتفت مثل أنياب ، كما لو إنها تقبض بقوة على ماهو مكتوب بداخله ، حتى عصف بأوراقه أخيراً النسيان الرحيم الذي أنقذه من مرور وخز المطبعة والرعب من ولادة في وادي الكرب هذا .

ليس بوسعي الادعاء بأني شاهد حي على انتشار شهرتي كشاعر . رغم أن ساتكاري داتا لم يكن مدرساً لفصلنا ، إلا أنه كان مولعاً بي . كان قد ألف كتاباً في التاريخ الطبيعي ، الأمر الذي أتمنى أن لايثير أي تعليق قاس بخصوص اهتمامه بي . في يوم من الأيام أرسل في طلبي وسألني «إذاً أنت تكتب الشعر؟» لم أحاول إخفاء الأمر . منذ ذلك الوقت أصبح يسألني بين حين وآخر أن أكمل رباعية بإضافة البيتين الأخيرين ، يكون هو قد كتب مطلعها .

كان جويندا بابو ناظر المدرسة قصيراً سميناً داكن البشرة جداً يجلس بحلّته السوداء مع دفاتر حساباته في مكتب في الطابق الثاني . كنا

جميعاً نرهبه لأنه قاضٍ مسلحٌ بعصا . هربت مرة إلى حجرته من خمسة أو ستة أولاد أكبر مني مستأسدين على من هم أضعف منهم . لم يكن عندي أي شاهد سوى دموعي . فربحت القضية .

من تلك اللحظة كنّ لي جويندا بابو المحبة في قلبه الرقيق . استدعاني يوماً إلى حجرته خلال فسحة الاستراحة . ذهبت وأنا أرتعش خوفاً ، لكن ما كدت أمثل بين يديه حتى بادرني بنفس السؤال الذي طرحه ساتكاري بابو إذاً أنت تكتب الشعر؟ ! لم أتردد في الاعتراف ، فأوكل لي كتابة قصيدة حول بعض التعاليم الأخلاقية السامية التي لا أذكرها . يمكن لمن كانوا طلاباً عند جويندا بابو فقط أن يقدروا حجم التنازل الذي تضمنه ذلك الطلب . عندما سلمته القصيدة في اليوم التالي ، أخذني إلى أعلى فصل وأوقفني أمام الطلاب وقال أمراً «اقرأ !» فألقيت قصيدتي بصوت مرتفع .

الشيء الوحيد الذي يستحق الإطراء في تلك القصيدة أنها فقدت بعد حين . لم يكن وقع القصيدة الأخلاقي على الفصل ملهماً ولا العواطف التي أثارتها محببة . كان معظمهم على يقين أن القصيدة ليست من نظمي . قال أحدهم أن بإمكانه تقديم الكتاب الذي نسخت منه ، لكن لم يضغط عليه لفعل ذلك ، الإلزام على إثبات شيء أمر بغيض على من يريدون أن يصدقوا أخيرا ، راح عدد الراكضين خلف الشهرة الشعرية يزداد بشكل ينذر بالخطر ولم تكن الطرق التي اختاروها من السبل المعترف بها التي تؤدي إلى التقدم

الأخلاقي .

اليوم لا غرابة في كتابة الشباب الشعر ، فقد ولى سحره . أذكر كيف كان ينظر إلى النساء القليلات اللاتي يكتبن الشعر على أنهن مخلوقات الله الخارقات . اليوم يراودنا الشك إذا قيل لنا إن بعض السيدات الشابات لا يكتبن الشعر .

يتبرعم الشعر قبل الوصول إلى الفصل البنغالي العالي بأمد طويل . لو كان هناك جويندا بابو معاصراً قد لا يلاحظ إطلاقاً المآثر الشعرية التي ألقيتها .

10

سريكانثا بابو

توفر لي في ذلك الوقت مستمع لن يجود الزمن بمثله أبداً . كان يتحلى بمقدرة على الإعجاب بما أكتبه مغالى بها تحرمه تماماً من منصب ناقد في أي من المجلات الشهرية . كان الرجل العجوز مثل حبة مانجو الفونسو الناضجة التي لا أثر لحموضة أو ألياف خشنة في تركيبها . كان وجهه الحليق الرقيق كامل الاستدارة بفضل صلعه الكامل ، ولم تَبْقَ لأسنان قد تزعج فمه أي باقية ، و تومض عيونه الكبيرة الباسمة بفرح دائم . كان عندما يتكلم بصوته العميق الناعم ، تتكلم عيونه وفمه ويداه أيضاً . كان ينتسب إلى مدرسة الثقافة الفارسية القديمة ، ولا يفقه أي كلمة من الإنجليزية . رفيقاه الدائمان هما النارجيلة في يساره وآلة الستار في حجره ، وحنجرته تشدو بأغنية مستمرة .

لم يكن سريكانثا بابو بحاجة إلى تقديم رسمي ، لأن أحداً لايقدر على مقاومة الدعوات الطبيعية لقلبه الكريم . أخذنا معه مرة ليصورنا في أستوديو إنجليزي كبير للتصوير . هناك أسر المالك بقصته الساذجة . أخبره بخليط من الهندوسية والبنغالية أنه رجل فقير وبحاجة ماسة إلى هذه الصورة . فما كان من الرجل إلا أن أعطاه سعراً مخفضاً وهو

يبتسم . لم تكن تلك المساومة الخالية من الرسميات في ذلك المحل الإنجليزي غير لائقة بتاتاً . كان سريكانتا بابو في غاية السذاجة وغير مدرك لإمكانية صنعه أية إساءة . كان يأخذني أحياناً إلى بيت تبشيري أوروبي . هناك أيضاً كان يفعم الاجتماع بالحياة والحيوية بلعبه وغنائه وملاطفته ابنة المبشر الصغير وإعجابه غير الخجول بأقدام زوجة المبشر المتعلة . قد يوصم سلوك شخص آخر مناف للعقل بالملل ، لكن بساطته الشفافة كانت تسر الجميع وتدعوهم إلى مشاركته مرحه .

لم يتأثر سريكانتا بابو بالفظاظة أو الإهانة . حدث مرة وأن جاء مؤسستنا مغن له قسط من الشهرة . كان يكيل الألفاظ الجارحة لغناء سريكانتا بابو المسكين عندما يكون في حاجة ماسة للخمر ، ويتحمله سريكانتا بابو دون أن يجفل ولا يحاول إجابته . أخيراً عندما سببت فظاظة الرجل التي لا يمكن تقويمها طرده ، تشفع له سريكانتا بابو متوسطاً بحماس وأصر قائلاً «إنه ليس السبب ، إنها الخمرة» .

لم يكن ليتحمل رؤية أي إنسان غارقاً في الحزن أو حتى أن يسمع به . لذا عندما كان يريد أي من الأولاد تعذيبه ، كل ما عليه عمله هو قراءة مقاطع من كتاب فيدياسجار «نفي ستيا» ، عندها يصيب القلق العظيم سريكانتا بابو ويرفع يديه محتجاً ويتوسل له أن يتوقف .

كان هذا الرجل العجوز صديقاً لأبي وإخوتي الكبار ولنا نحن الصغار على حد سواء . لقد كيّف عمره ليلائم كلاً منا ، مثل صلاحية أي نواة تمر للرقص والوثب في سيل جارف ، لذا يكفي أي حافز مهما

صغر أن يعيد إليه مزحه .

أذكر أني مرة نظمت ترنيمة صغيرة تقع ضمن حدود الإشارات الضمنية المعهودة لحن وبلاء هذا العالم . اقتنع سريكانثا بابو بأن والدي المبجل سيغمر بالبهجة لسماعه مثل هذه الدرة . تطوع بحماسه المطلق المألوف ليقدمها له . من حسن الحظ أني لم أكن موجوداً حين ذاك ، لكني سمعت لاحقاً بأن والدي سُرَّ جداً لأن مآسي العالم قد أثارت ابنه الصغير باكراً لدرجة جعلته ينظم الشعر . أنا متأكد أن الناظر جوبند ابابو كان سيظهر احتراماً أوفر لمحاولتي الكتابة حول موضوع جاد جداً .

كنت في الغناء تلميذ سريكانثا بابو المفضل ، علمني أغنية تقول « لا براجا أكثر لي» ، وكان يجرني إلى كل غرفة ويطلب مني غناءها . كنت أغني وهو يصاحبني بمداعبة أوتار سيتاره ، وحين نصل إلى الكورس كان ينضم إليّ ويكرر الجمل عدة مرات ، يومىء برأسه مبتسماً لكل فرد بالتناوب ، كما لو أنه يمسهم بمرفقه استرعاءً لمزيد من التقدير الحماسي .

كان مخلصاً لأبي ، ووضع ترنيمة من إحدى ألحانه تقول «لأنه فؤاد قلوبنا» عندما غنى هذه الترنيمة في حضرة أبي تحمس سريكانثا بابو لدرجة جعلته يثب من مقعده وينقر أوتار سيتاره بعنف وهو يغني «لأنه فؤاد قلوبنا» ثم لوح بيده في وجه أبي حين بدل الكلمات « لأنك أنت فؤاد قلوبنا» . عند زيارته الأخيرة ، كان أبي طريح الفراش في دارة نهرية في شونشورا . لم يقدر سريكانثا بابو على النهوض دون مساعدة

إثر مرضه الأخير ، وكان يفتح جفونه بيده حتى يرى . في تلك الحالة تولت ابنته رعايته ليسافر إلى شونشورا من بيته في بيربهام . . . بجهد كبير استطاع مسح الغبار عن أقدام أبي ، ثم عاد إلى مسكنه في شونشورا حيث لفظ أنفاسه الأخيرة بعد ذلك بأيام . سمعت بعد ذلك من ابنته أنه عاد إلى صباه الخالد وأغنية «ما أحلى رحمتك ياإلهي» على شفتيه .

11

نهاية درسنا البنغالي

كنا في المدرسة في الصف قبل الأخير ، وفي البيت متقدمين كثيراً على المواضيع التي تدرس في الفصل ، حيث انتهينا من كتاب أكشي داتا حول الفيزياء الميسرة وملحمة الشعر المرسل «ميجهنادباده» . درسنا الفيزياء دون الرجوع إلى الأجسام الطبيعية ، لذا كانت معلوماتنا عن الموضوع مستمدة من الكتب لا التجارب العملية . في الواقع كان الوقت الذي قضيناه في دراستها مضيعة تامة لعقلي كما لو أني قضيت الوقت لا أفعل شيئاً وأكثر .

ولم تكن «ميجهنادباده» أيضاً تبعث على السرور . قد لا يكون أشهى الطعام حسن المذاق عندما يلقي على رأس الإنسان . يشبه توظيف ملحمة لتدريس اللغة استعمال سيف للحلاقة : قلة احترام للسيف وإيلام للخد . يجب أن تدرس القصيدة من وجهة نظر عاطفية ؛ إغراء استعمالها كمعجم مربوط بقواعد اللغة عملية غير مدروسة جيداً لإرضاء ساراسوتي ، إلهة التعلم والمعرفة . دون سابق إنذار وضعت نهاية لدراستنا في المدرسة النظامية ، ولذلك حكاية أراد أحد مدرسينا أن يستعير من مكتبتنا نسخة من سيرة حياة جدي التي كتبها ميترا .

جمع ابن أخي وزميلي في الفصل شجاعة كافية لذكر ذلك لأبي . استخلص المدرس أن البنغالية المستعملة في الحياة اليومية لا تصلح كمنهج دراسي ، تلفظ باصطلاح ميت ملفق بدقة متناهية من توافه الأمور ، أشعر أبي بأن دراستنا للبنغالية قد جاوزت حدودها ووصلت مرحلة خطرة وقد تخفق في تحقيق غايتها المنشودة . في صباح اليوم التالي ، عندما وضعت منضدتنا كالعادة في الشرفة الجنوبية وعلقت الصورة على مسمار في الحائط ، وأصبح كل شيء معداً لبدء درسنا مع نيل كمال بابو ، أرسل في طلب ثلاثتنا للمثول أمام أبي في حجرته في الطابق العلوي «لستم بحاجة لدراسة البنغالية بعد الآن» قال ، فرقصت عقولنا فرحاً .

كان نيل كمال بابو ينتظر في الطابق السفلي وكتبنا ملقاة على المنضدة ولاريب أن فكرة دراستنا «ميجهنادباره» مرة أخرى كانت لا تزال تشغل ذهنه . يقال إن روتين الحياة اليومية يبدو غير حقيقي عندما يحتضر الإنسان في فراش الموت ، لذا في تلك اللحظة ، أصبح كل شيء من المدرس إلى المسمار المعلق عليه السبورة فارغ المحتوى كسراب . كانت معضلتنا الوحيدة كيف نزفُّ الخبر إلى نيل كمال بابو باللباقة المتوجبة . أخيراً فعلنا ذلك بتحفظ معقول ، في حين كانت الأشكال الهندسية تحدق بنا بتعجب وتنظر إلينا «ميجهنادباره» بانشداه . كانت كلمات المدرس الوداعية « عند نداء الواجب ، ربما كنت أحياناً قاسياً معكم ، لاتحفظوا ذلك في الذاكرة . ستعرفون قيمة

ماعلمتكم إياه في وقت لاحق» .

قدرت قيمة كلماته ، فلقد نشطت أدمغتنا لأننا تعلمنا بلغتنا الأم . على التعليم أن يتبع عملية الأكل بقدر الإمكان . عندما يبدأ التذوق من اللقمة الأولي تستيقظ المعدة لأداء وظيفتها قبل أن تمتليء كي تمارس إفرازات الهضم واجبها كاملاً . لا يحدث شيء من هذا القبيل حين يدرس الولد البنغالي بالإنجليزية . تبشر اللقمة الأولى بفتح صفي الأسنان مثل زلزال في الفم ، وعندما يكتشف أن القشرة ليست من نفس نوع النواة ، بل هي مجرد حلوى مهضمة يكون نصف حياته قد ولى . في الوقت الذي يختنق فيه المرء وهو يغمغم بتهجئة الكلمات وقواعد اللغة ، يبقى الداخل طاوياً ؛ وعندما يتذوق الطعم بعد أمد طويل تختفي الشهية ، إذا لم يعمل العقل برمته منذ البدء بكامل قواه ، يبقى غير متطور إلى النهاية ، حين ترامى إلى سمع كل من حولنا صيحة دراسة الإنجليزية ، ملك أخي الثالث شجاعة كافية للحفاظ على دراستنا البنغالية . إليه في السماء شكري المبجل .

12

البروفسور

أرسلنا إلى الاكاديمية البنغالية حتى تركنا المدرسة النظامية وهي معهد آسيوي -أوروبي- . شعرنا أننا حصلنا على مدخل للوقار بوصولنا إلى الطابق الأول للحرية . في الواقع كان ذلك التقدم الوحيد الذي قمنا به في تلك الأكاديمية . ما تعلمناه هناك لم نفهمه أبداً ، ولم نحاول التعلم ، لم يبدُ أيما فارق في ذلك لأي كان . كان الأولاد هناك مزعجين لكن غير مقرفين ، أمر مريح جداً . كانوا يكتبون كلمة «حمار» على أكفهم ويضربونها على ظهورنا قائلين بجذل «مرحباً» ويدفعوننا بوكز الأضلع من الخلف ثم ينظرون في الاتجاه الآخر ببراءة . ويلقون بلب الموز على رؤوسنا برفق وينسلون مختفين . مع ذلك ، كان الأمر كالخروج من الوحل إلى الصخور كنا نتعرض للمضايقة ، لكن سمعتنا لم تشوه .

كان لهذه المدرسة ميزة عظيمة بالنسبة لي . لم يتعلق أحد بالأمل اليائس من أن ولداً مثلي يمكن أن يحقق تقدماً في التعليم . كان لنا في هذا المعهد ذي الدخل المحدود ميزة عظيمة في أعين مسؤوليه وهي أننا ندفع الأقساط بانتظام ، الأمر الذي منع حتى قواعد اللغة اللاتينية من

أن تكون حجر عثرة . لم يخدش أعظم الأخطاء الفظيعة ظهورنا بأي أذى . لم يكن للرأفة أي يد في ذلك لقد تكلم المسؤولون مع المدرسين وأوصوا بنا .

لم يكن المكان مؤذياً ، لكنه كان مدرسة . كانت الغرف كئيبة بفظاظة وجدرانها تنتصب حراساً كالشرطة ، لعلها أقرب شبهاً بصندوق عيون أبراج الحمام من موضع سكن بشري ، لا زينة ولا صور ولا لمسة ألوان ولامحاولة لجذب القلب الطفولي . تم تجاهل الحقيقة التي تقول إن ما يحبه الطفل أو لا يحبه يشكل جزءاً كبيراً من تفكيره . بطبيعة الحال كنا نشعر بالكآبة التامة حالما تطأ أقدامنا عتبات المعهد وندلف إلى الساحة الرباعية الزوايا ، لذا أصبح اختلاقنا للأعذار حتى نتغيب عن المدرسة أمراً دائم الحدوث ، وكان لنا في هذا شريكاً . كان لإخوتي الكبار مدرس للفارسية ندعوه مونشي ، متوسط العمر ، ناحل من عظام وجلد فقط ، كما لو أن ورق البرسمان الداكن اللون قد مر على هيكله العظمي دون أن يملأ بالدم واللحم . ربما كان يتقن الفارسية جيداً ومعرفته باللغة الإنجليزية حسنة ، غير أن طموحه لم يكن منصباً في أي من الاتجاهين . كان يعتقد أن مهارته في الغناء لايضاهيها إلا حذقه في مبارزة الهراوات . كان يقف في وسط فناء بيتنا ويقدم سلسلة من الحركات الغريبة بعصاً ضد خصمه الذي لم يكن إلا ظله . لست بحاجة لإضافة أن ظله لم يفز عليه أبداً ، وعندما يطلق في النهاية صرخة مدوية ويسدد ضربة لخصمه على رأسه وهو يبتسم منتصراً ،

يستلقي الظل تحت أقدامه بخضوع . يشبه غناؤه الحاد المنطلق من الأنف والخارج من تناغم اللحن مزيجاً رهيباً من الأنين والتأوه والعويل القادم من عالم الأشباح . كان معلمنا في الغناء فيشنو يمازحه أحياناً بقوله ، انتظر يامونشي ، على هذا النحو ، ستأخذ الخبز من أفواهنا !» . ولا يكون جوابه الوحيد إلا ابتسامة ازدراء .

يدل ذلك على أن مونشي كان سهل الانقياد بالكلمات الرقيقة ، وكان بإمكاننا إقناعه كلما أردنا أن يكتب إلى مسؤولي المدرسة للسماح لنا بالتغيب . لم يحفل المسؤولون بالتدقيق في هذه الرسائل ، لعلمهم أن وجودنا أو غيابنا سواء ولا يؤثر على النتائج التعليمية .

أصبح عندي الآن مدرسة خاصة بي مهيأ فيها الطلاب لكل صنوف الأذى ، الآن الطلاب دائماً عابثون والمدراء متسامحون . إذا هاج أحدنا ثائراً لسلوكهم وحرضه ذلك لاتخاذ قرار بما يستحقونه من عقاب ، تواجهني آثامي أيام الدراسة موبخة متجهمة .

أرى بجلاء أن الخطأ يقبع في الحكم على الأولاد من خلال قيم البالغين ونسيان أن الولد سريع ومتحرك مثل سيل جارف ، ولا حاجة لأي شائبة لإثارة مخاوف لا داعٍ لها ، لأن سرعة جريان السيل نفسها هي خير علاج ، حيث يحل الركود يكمن الخطر ، وعليه فإن على المدرس أكثر من التلاميذ الحذر من فعل الزلل .

كان هناك مقصف للطلاب البنغاليين لإشباع متطلبات طبقتهم المغلقة ، ومكان نتعرف فيه على الآخرين ونقيم معهم الصداقات .

كانوا جميعاً أحسن مني ، واحد منهم يستحق الذكر باستطراد . كان حقل اختصاصه هو فن السحر إلى حد أنه كتب ونشر كتيباً صغيراً حول الموضوع تحمل صفحته الأولى اسمه تحت كنية بروفسور . لم أقابل من قبل طالب مدرسة أعماله منشورة لذا كان تبجيلي له ، أعني كبروفسور في السحر عظيماً . كيف سمحت لنفسي بالاعتقاد أن أي شيء مشكوك فيه يمكن أن يجد طريقة مباشرة إلى مرتبة الحروف المطبوعة !؟ كلما كانت مقدرة المرء على تسجيل كلماته بحبر يتعذر إزالته أمراً تافهاً؟ ! كيف يمكن للإنسان كبح الإيمان حيال مثل هذه الثقة العظيمة بالنفس حين يقف مكشوفاً بلا خجل وهو يدلي باعتراف شخصي أمام العالم؟ أذكر أني حصلت مرة على أحرف اسمي من مطبعة ، يا لها من ذكرى عندما حبرتها وطبعتها على الورق ورأيت اسمي مطبوعاً .

كان هذا الزميل في المدرسة والصديق المؤلف يركب في عربتنا حين نذهب إلى المدرسة . بعد وقت وجيز أصبحنا نتزاور . كان متفوقاً أيضاً في التمثيل المسرحي . نصبنا بمساعدته خشبة مسرح في الجزء المخصص للمصارعة في بيتنا بمد ورق مصبوغ على هيكل عيدان البامبو المشقوقة ، غير أن قراراً سلبياً قاطعاً من الطابق العلوي منع عرض أي مسرحية عليها . مع ذلك قدمت مسرحية مفارقات كوميدية في وقت لاحق دون وجود مسرح بتاتاً سبق وأن قُدم كاتبها للقارىء ، الذي لم يكن سوى ابن أخي ساتيا .

قد يصدم من يراه الآن هادئاً رزيناً عندما يعرف الحيل التي اخترعها .
وقع الحدث الذي سأرويه بعد ذلك بقليل عندما كنت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، كان صديقنا الساحر يتحدث عن الأشياء بطرق غريبة جعلتني أتلهف من فرط فضولي لرؤيتها شخصياً ، غير أن المواد التي اعتاد أن يذكرها كانت نادرة جداً ، أو بعيدة المنال إلى حد يصعب على الإنسان الحصول عليها دون مساعدة السندباد البحري . رغم ذلك نسي البروفسور نفسه مرة وذكر أشياء سهلة المنال . من يصدق أن البذرة إن وضعت وجففت إحدى وعشرين مرة في عصارة بهارات الصبار يمكن أن تتبرعم وتزهر وتثمر في مدة ساعة واحدة؟ صممت على تجربة ذلك ، طبعاً دون أن أجرؤ على الشك في تأكيدات البروفسور الذي ظهر اسمه على كتاب مطبوع . أقنعت بستاني حديقتنا أن يزودني بكمية كبيرة من العصير اللبني ، وفي عصر يوم أحد أخذت نفسي وذهبت إلى الركن الغامض الخاص في سطح البيت لأجري تجربتي على نواة مانجو . انهمكت في مهمتي من الغمر والتجفيف بسرعة . لعل القارىء البالغ ليس بحاجة لأن ينتظر ويسأل عن النتيجة ، في غضون ذلك لم أعلم أن ساتيا قد نجح في ركن آخر في جعل نبتة غامضة من صنعه تطلق جذوراً وتتبرعم في مدة ساعة وتحمل فاكهة غريبة لاحقاً . بعد تجربتي أدركت تدريجياً أن البروفسور صار يتحاشاني ، لا يجلس في نفس الطرف الذي أكون عليه في العربة ويدا أنه يغالب شعوراً بالخجل مني .

اقترح فجأة في يوم ما أن يقفز كل منا من على مقعد غرفة الدراسة بالتناوب . قال إنه يريد أن يرى الفرق في أسلوب القفز . لم يكن مثل هذا الفضول العلمي غريباً على بروفسور سحر . قفزنا جميعاً . هز رأسه وتمتم «هممم» بصوت مُكتوم . لم يكن لأي قدر من التملق أن يستخلص منه أكثر من ذلك .

في يوم آخر أخبرنا أن بعضاً من أصدقائه المقربين يودون التعرف علينا وطلب منا أن نصحبه إلى بيتهم . لم يعارض حراسنا فذهبنا إليهم . كان حب الاستطلاع يهيمن على الحضور في الغرفة وأعربوا عن اشتياقهم لسماع غنائي . غنيت أغنية أو أغنيتين . كنت مجرد طفل ومن غير المرجح أن يكون صوتي مثل خوار ثور ، «صوت عذب» قال الجميع .

عندما وضعت المرطبات أمامنا ، جلسوا حولنا وراحوا يرقبوننا ونحن نأكل . كنت خجولاً بطبيعتي وغير معتاد على صحبة الغرباء ، علاوة على أن العادات التي تعلمتها تحت إشراف خادمنا أشوار جعلتني قليل الأكل إلى الأبد . تركت هشاشة شهيتي انطباعاً حسناً لدى الجميع . تلقيت في آخر فصل من هذه المهزلة بعض الرسائل الحارة من بروفسورنا تفسر الوضع برمته .

لتسدل الستارة هنا . علمت فيما بعد من ساتيا أنه نجح في إقناع البروفسور حين كنت أمارس السحر على بذور المانجو أن خدامنا يلبسونني ملابس ولد لأحصل على تعليم أفضل فقط ، لكن في الواقع

هذا مجرد تنكر فقط . عليّ أن أفسر لمن عندهم فضول حول علم الخيال أنه من المفترض أن تقفز الفتاة بقدمها اليسرى أماماً ، وهذا ما فعلته في امتحان البروفسور أدركت قليلاً عظم و هول الخطوة الخاطئة التي خطوتها .

13

أبـي

اعتاد والدي بعد مولدي بقليل على الترحال الدائم ، لذا لا أبالغ إن قلت إني بالكاد كنت أعرفه في طفولتي المبكرة . كان يعود للبيت بين وقت وآخر فجأة وبصحبته خدم غرباء ، أتوق كثيراً لصداقتهم . جلب معه مرة خادماً بنجابياً شاباً اسمه لينو . كانت حرارة الاستقبال التي قوبل بها تليق بالمهراجا رابجيت سنجه بنفسه . لم يكن أجنبياً فحسب ، بل بنجابياً أيضاً ، الأمر الذي سلب منا القلوب . كنا نكن نفس التبجيل لكل الأمة البنجابية التي نكنها لبهما وأرجونا في ميهابهاراتا . كان من المقاتلين الذين إن خسروا حرباً في بعض الأحيان فإن ذلك يعود بلا شك إلى خطأ العدو . كان شأناً عظيماً أن نستضيف لينو البنجابي في بيتنا .

كان عند زوجة أخي أنموذج سفينة حربية تحفظه في وعاء زجاجي يموج بأمواج من الحرير الأزرق عندما يعبأ للعمل على نغمات رنين صندوق موسيقي . كنت أتوسل إليها أن تعيرني إياه لأعرض عجائبه على لينو المبجل . لكوننا كنا سجناء في البيت ، فإن لأي شيء ذي نكهة أجنبية فعل سحر خاص . لعل هذا أحد أسباب اهتمامي الكبير

بلينو ، ويفسر هذا لم أثارني جابريل اليهودي أيضاً الذي جاءنا لبيع العطور وزيوت الرائحة بسترته الطويلة المطرزة ، ولماذا أطلق الكابوليس الضخم العنان لفكري في أحلام رهيبة بسراويلهم الواسعة المغبرة وحقائب ظهورهم والرزم التي يحملونها .

لذا عندما قدم أبي كنا في غاية السعادة للاختلاط ببطانته وخدمه ، وإن لم نحقق ذلك عملياً . مرة حين كان والدي في الهملايا ، ذلك الغول القديم للحكومة الإنجليزية ، أصبح الغزو الروسي موضوعاً يثير الحديث بين الناس . ضخمت سيدة حسنة النية من صديقات والدتي الخطر الداهم ، وأسهبت بكل أحلام الخيال الخصب . كيف يمكن لأي إنسان أن يوضح من أي ممرات التبت يمكن للجيش الروسي أن يتقدم فجأة مثل مذنب مشؤوم؟

أصاب الفزع أمي بشكل جدي ، وربما لم يشاركها أفراد الأسرة الآخرين في هواجسها ، لذا طلبت مساعدتي الطفولية وقد يئست من عطف البالغين «ألن تكتب لوالدك عن الروس؟» قالت لي . كانت رسالتي المحملة بأنباء قلق أمي رسالتي الأولى لأبي . لم أعرف كيف أستهلها أو أنهيها ، أو أي شيء عنها . ذهبت إلى ماهافاندا ، إلى مكتبنا في مونشي . كان شكل الخطاب في المحصلة الأخيرة صحيحاً بلا ريب ، غير أن العواطف عجزت عن تجنب النكهة القديمة المبتذلة الملازمة للمراسلات الصادرة من المكاتب العقارية .

تلقيت رداً من أبي ، طلب فيه مني أن لا أخاف إذا جاء الروس

فسوف يطردهم بنفسه . لم يخلص تأكد الثقة هذا أمي من مخاوفها ، ولكن فعله هان في تحريري من كل خجل في ما يتعلق بعلاقتي بأبي . بعد ذلك أردت أن أكتب له كل يوم وبهذا أزعجت ماهافاندا الذي لعدم صموده أمام إلحاحي كان يكتب لي المسودات أنسخها فيما بعد . لكني لم أعرف أنه يجب دفع ثمن لإرسال الرسائل . كنت أظن أن المسائل إن حُلت في يد ماهافاندا تصل إلى هدفها دون حاجة لعناء . من غير الضروري إضافة أن لماهافاندا من العمر مايكفي لضمانه أن هذه الرسائل لم تصل إلى قمم جبال الهملايا أبداً .

عند عودة أبي بعد طول غياب . ولو لبضعة أيام ، كان البيت كله يمتلىء بوقار حضوره . كنا نرى من يكبروننا في ساعات معينة يمرون إلى حجرة مرتدين ثوب الجوكاس الرسمي متحفظّن في مشيتهم ، وفي طلعة رزينة ويلقون اللبان الذي يعلكونه في أفواههم جانباً . كان الجميع متحفزين وعلى أهبة الاستعداد .أمي تشرف على طهي الطعام بنفسها حتى تتأكد أن كل شيء يسير على مايرام . ويحذرنا الخادم العجوز كينو ذو البزة البيضاء والعمامة المتوجة بعرف ، الواقف قرب باب أوي ، من الصخب في الشرفة الواقعة أمام حجرته أثناء قيلولته في الظهيرة . كنا نمر من هناك بهدوء ونتكلم همساً ولا نجرؤ حتى على إلقاء نظرة إلى الداخل .

جاء والدي في إحدى المناسبات ليتفقد ثلاثتنا بالخيط المقدس . جمع بمساعدة البانديت فيدانتافاجيش لهذه الغاية طقوس الفيدا القديمة .

دربنا لعدة أيام كيف نشدو بلهجة صحيحة مختارات من «أوبانيشادس» الموزعة تحت اسم «براهما دهارما» ، وأبي جالس في قاعة الصلاة مع بشارام بابو . أخيراً برؤوسنا الحليقة وأقراط حلق ذهبية في آذاننا ، ذهب البراهمايون الثلاثة الناشئين إلى مأوى الرياضة الروحية في الطابق الثالث لمدة ثلاثة أيام . كان ذلك متعة عظيمة . وفرت لنا الأقراط مماسك جيدة لشد آذان بعضنا بعضاً . كنا نقف على الشرفة ومعنا طبل صغير وجدناه في إحدى الغرف نقرعه حين نلمح خادماً ماراً في الطابق السفلي ، مما يجعل الرجل يلقي بنظرة إلى أعلى ، ثم يحول بصره وينسحب بسرعة متراجعاً في لحظة . من المؤكد أننا لانستطيع الادعاء بأننا كنا نقضي أيام عزلتنا في تأمل زاهد .

قناعتي أن أولاداً مثلنا لا بد أنهم تواجدوا في تراث الأقدمين . إذ قالت وثيقة قديمة إن سارادواتا أو سارانجارافا اللذين كانا في العاشرة أو الثانية عشرة من العمر ، قضيا كل طفولتهما يقدمان القرابين وينشدان المانتراس ، فإننا غير مجبرين على عدم الشك في صدق هذه الوثيقة ، لأن كتاب طبيعة الأطفال ، أقدم وأكثر أصالة أيضاً .

عندما استكملنا البراهمينا ، صار لي ميل لإعادة «الجاياتري» لأتأملها بتركيز عظيم ، إنها نص يصعب فهم معانيه كاملة في ذلك العمر . أذكر جيداً الجهد الذي بذلته لتوسيع مدى فهمي بمساعدة الابتهال الأولي «الأرض ، القبة الزرقاء ، السماء» ، كيف أحسست أو فكرت بصعوبة التعبير عنها بوضوح ، لكن ما أنا متأكد منه ، أن وضوح معنى

الكلمات ليس أكثر الأجزاء أهمية في عملية الفهم الإنساني . ليس الهدف الرئيسي للتعليم تقديم التفسيرات ، بل القرع على أبواب العقل . لو طلب من أي ولد تقديم وصف لما أيقظ فيه هذا القرع ، ربما سيتفوه بأشياء سخيفة ، لأن مايجري في العمق أكبر بكثير مما يخرج من الكلمات . لا يعير الذين يضعون ثقتهم في الفحوص الجامعية كامتحان للتعليم أي اعتبار لذلك .

بميسوري استعادة أشياء جمة لم أفهمها ، لكنها أثارتني بعمق . مرة على سطح بيتنا النهري ، عند تراكم الغمام فجأة . ألقى أخي الأكبر بصوت جهوري بعض المقاطع من «رسول الغمام» لكاليداس . لم أكن لأفقهَ كلمة من السنسكريتية ، ولم أكن بحاجة لذلك . كان إلقاؤه الوجداني والإيقاع الرنان كافييْن بالنسبة لي ، ثم في مرة أخرى ، قبل أن أفهم الإنجليزية بشكل صحيح وقعت بين يدي نسخة من «حانوت الغرابة القديم» بصور توضيحية غزيرة . قرأته كله رغم جهلي لتسعة أعشار الكلمات الواردة فيه . مع ذلك نسجت من الأفكار الضبابية التي يستحضرها ماتبقى من الكتاب خيطاً متنوع الألوان تربط به الصور التوضيحية . ربما سيعطيني أي مدرس جامعي صفراً ، لكن بالنسبة لي لم تكن قراءة الكتاب خاوية عديمة الجدوى تماماً .

مرة أخرى ، صاحبت أبي في رحلة عبر نهر الجانجس في قاربه المعد للسكن . من بين كتبه كانت هناك نسخة قديمة من منشورات فورت وليم لكتاب جاياديفا «جيتا جوفنيدا» مطبوع بالأحرف البنغالية . لم

تكن القصائد مقسمة إلى أبيات ، بل تجري متواصلة مثل النثر . لم أعرف السنسكريتية آنئذ ، لكن بسبب معرفتي للبنغالية ، كانت كثير من الكلمات مألوفة . لا أدري كم مرة قرأت هذا الكتاب ، أذكر هذا البيت بشكل خاص :

ينطفىء الليل في منفى غابة منعزلة

بعث هذا البيت حساً بالجمال في ذهني . كانت الكلمة السنسكريتية nibhrita- nikunja- griham التي تعني «منفى غابة منعزلة» كافية لي . توجب عليَّ أن أستنبط بنفسي الوزن المعقد لشعر جايا ديفا ، لأن حدود الأبيات فقدت في الشكل النثري الأخرق للكتاب . كان هذا الاكتشاف مصدر متعة عظيمة لي . بالطبع لم أفقه معاني جايا ديفا كاملة . في الواقع يصعب القول بصدق أني فهمتها بشكل جزئي . غير أن صوت الكلمات وخفة إيقاع الوزن ملأت ذهني بصور فخمة لدرجة دفعتني أن أنسخ الكتاب كله لاستعمالي الخاص .

حدث نفس الشيء عندما كنت أكبر بقليل مع قصيدة من «مولد إله الحرب» لكاليداس . أثارت القصيدة مشاعري حقاً رغم أن الكلمات الوحيدة التي فهمتها هي «يبعث النسيم العليل الرذاذ من مياه مانداكني المتساقطة المقدسة ، وتهتز أوراق أرز الهملايا» . لقد تركتني هذه الكلمات مسمراً في مكاني لأتذوق كل القصيدة . حين شرح لي مدرس في وقت لاحق أن النسيم في البيتين اللاحقين «يشق ريش ذيل الطاووس على رأس صائد الغزلان المتلهف» خيب نحل الصورة

ظني . كنت في وضع أفضل عندما اعتمدت علي مخيلتي فقط لإتمام القصيدة .

سيوافق كل من يعود إلى طفولته المبكرة على أن أعظم مكتساباته لا تجاري كمال فهمه . عرف هذا شعراء ملاحمنا جيداً . في حفلات إلقائهم العامة كانت قصصهم دائماً تتضمن كمية كبيرة من الكلمات السنسكريتية التي تملأ الآذان والملاحظات المبهمة الغامضة المدروسة بحيث لا تفهم تماماً من قبل مستمعيهم البسطاء ، بل تكون موحية فقط .

يجب أن لا يستخف في قيمة مثل هذا الإيحاء بأي شكل من قبل اللذين يحكمون على التعليم من خلال ميزان الربح والخسارة المادية . يصرون على إحصاء الحساب ليجدوا كم يمكن أن يستخلص من الدرس بالضبط . لكن الأطفال ومتواضعي التحصيل العلمي يقطنون في هذه الجنة الأولى حيث يمكن للناس جني المعرفة دون الفهم الكلي لكل خطوة وشاردة . فقط حين نفقد هذه الجنة يأتي يوم الشيطان حين يتوجب فهم كل شيء . الطريق التي تقود إلى المعرفة دون اللجوء إلى عملية الفهم الرهيبة هي الطريق الممتازة الهينة . إذا سد هذا الدرب ، حتى ولو استمر الاتصال ، فإن البحر الشاسع وقمم الجبال ستغدو غير ممكنة المنال .

لذا ، كما أسلفت ، رغم أني لم أدرك في ذلك العمر ، معنى جاياتري الكامل إلا أن جزءاً مني كان بإمكانه التقبل دون الفهم التام . يذكرني

هذا بيوم كنت أجلس فيه على الأرض الأسمنتية في ركن غرفة فصلنا أفكر متأملاً في نص الكتاب، عندما امتلأت عيوني بالدموع. لماذا؟ لا أدري. ربما أقدم تفسيراً إلى محقق متشدد لا يمت إلى جاياتري بصلة. الواقع أن مايدور في أعماق الوعي غير معروف دائماً للقابع على السطح.

14

رحلة مع أبي

سبب لي رأسي الحليق بعد احتفال الخيط المقدس قلقاً عظيماً . مهما كان الأولاد الأوراسيون محابين بخصوص البقرة المقدسة ، فمن المؤكد أن احترامهم للبراهمية ضئيل . توقعت ذلك بصرف النظر عن القذائف الأخرى . لا ريب أن رؤوسنا الحليقة كانت ترشق بالملاحظات الساخرة . وأنا في غمرة القلق هذا ، دعيت إلى حجرة أبي في الطابق العلوي . هل أحب الذهاب معه إلي الهملايا؟ سألني بعيداً عن الأكاديمية البنغالية والذهاب إلى الهملايا ! ! هل أحب ذلك؟ ! ! كنت بحاجة لصيحة تشق السماء لأعرب عن فكرة صغيرة ، عن هل؟

في يوم رحيلنا ، جمع والدي كعادته كل العائلة في قاعة الصلاة من أجل صلاة جماعية . بعد أن لمست أقدام إخوتي الكبار احتراماً ، صعدت إلى العربة مع والدي . كانت تلك المرة الأولى في حياتي التي يحاك لي فيها طقم كامل من الملابس . اختار أبي بنفسه القماش ولونه . وأكمل زيي طاقية مخملية مطرزة بالذهب ، حملتها في يدي لريبتي من تأثير وضعها على رأسي الأجرد من الشعر . حين صعدت

إلى العربة أصر والدي عليّ بلبسها ، لذا توجب عليّ فعل ذلك . كنت أخلعها كلما نظر إلى الجهة الأخرى وأعيدها إلى موضعها فوق رأسي كلما التقت عيوننا . كان والدي دقيقاً جداً في كل ترتيباته ويكره ترك الأمور مبهمة دون اتخاذ قرار بشأنها ، ولم يسمح إطلاقاً بقذارة الجسم أو أي بديل مؤقت مكانها . كانت له مجموعة قوانين محددة تماماً لتنظيم علاقاته مع الآخرين وعلاقتهم معه . كان في ذلك يختلف عن الأغلبية العظمى من مواطنيه . ولم تكن لينته القليلة معنا تعني كثيراً ، لذا كنا في غاية الحذر في تعاملنا معه . لم يكترث لحجم أو أهمية واجب ما بقدر اهتمامه بالفشل في حفظ المستوى المطلوب .

كانت لأبي طريقة في تصور كل تفاصيل مايود عمله . في مناسبات الاحتفالات الجماعية التي لم يقدر على حضورها بنفسه ، كان يعين مكاناً لكل شيء وواجباً لكل فرد في الأسرة ومجلساً لكل ضيف ، ولا يغفل شيئاً . بعد نهاية الاحتفال كان يسأل كل فرد عن وصف مستقل وبذلك يحصل على انطباع كامل عن مجمل الاحتفال . لذا عندما كنت معه في الرحلة ورغم انعدام ما يحثه على التدخل ليسأل كيف أستمتع بوقتي ، لم يترك منفذاً في قوانين السلوك الصارمة المفروضة عليّ مفتوحاً .

كانت أول وقفة لنا في بولبور لبضعة أيام ، حيث سبقنا ساتيا إلى هناك مع والديه قبل وقت قصير . لم يكن أي ولد يحترم نفسه في القرن التاسع عشر يصدق الوصف الذي يقدمه عن رحلة عند عودته .

غير أني كنت مختلفاً ، ولم تسنح الفرصة لي لتعلم تحديد الخط الفاصل بين الممكن وغير الممكن . لم تقدم لنا ميهاربهاراتا أو رامايانا أي إشارة ، لذلك تعلمنا كل القوانين الصارمة التي تحكم العالم ولا سبيل لانتهاكها بالتجربة .

أخبرنا ساتيا أن الركوب في القطار أمر خطير مالم يكن الإنسان خبيراً فوق العادة ، أقل زلقة وينتهي كل شيء ، وعلى المرء أن يقبض على مقعده بكل قواه وإلا فإن الرجة الهائلة عند الانطلاق قد تقذفه إلى ما لم يخبرنا به .

عندما وصلنا إلى محطة سكة الحديد ، كنت أرجف بكامل كياني . دلفنا مقصورتنا بسهولة فائقة وشعرت بأن الأسوأ قادم لامحالة . وعندما انطلقنا بعد انتظار بانسياب لايصدق دون أي إشارة إلى مغامرة أحسست بخيبة أمل فاجعة .

أسرع القطار ومرت الحقول الفسيحة المحاطة بالأشجار الخضراء المزرقة المستكينة في ظلها القُرى كسيل صور تتلاشى ببطء مثل فيض السراب . كان المساء قد حل عندما وصلنا بولبور . أقفلت عينيّ حين امتطيت المحفة . أردت أن أحتفظ بروعة الرؤيا كلها في نور الصباح مفروشة أمام عيني المستيقظتين . خشيت أن تفسد النظرات الناقصة التي تلمح في ضبابية الشفق جدة التجربة . كنت في غاية الإثارة حين استيقظت في الفجر وخطوت خارجاً . أخبرني أسلافي أن في بولبور أحد المعالم التي لا توجد في أي جزء آخر في العالم ، ممر يقود من

المباني الرئيسية إلى أجنحة الخدم ، لا يسمح لأشعة الشمس أو قطرة مطر أن تلمس أي شخص يمر عبره رغم أنه غير مسقوف بأي شكل من الأشكال . رحت أبحث عن هذا الممر الرائع . إلا أن القاريء ربما لن يتعجب لفشلي في العثور عليه إلى يومنا هذا .

لكوني ابن مدينة ، فإني لم أر حقل أرز من قبل ، ولديَّ صورة ساحرة لراعي الأبقار الصبي الذي قرأنا عنه ، مصورة على قماش مخيلتي ، سمعت من ساتيا أن بيت بولبور محاط بحقول أرز ناضجة وأن اللعب فيها مع رعاة البقر الصبيان أمر عادي حيث جَنْي وطَهْي وأكل الأرز هي الميزة البارزة . تفحصت ماحولي بلهفة . أين حقل الأرز في كل هذه الأرض البور؟ لعل رعاة البقر الصبيان في مكان ما حولنا ، لكن السؤال ، كيف يمكن تمييزهم من الصبية الآخرين؟ !

لم يأخذني ما عجزت عن رؤيته وقتاً طويلاً لتجاوزه ، ماشهدته كان كافياً ، لم تكن هناك قوانين خدم ، والحلقة الوحيدة التي أحاطت بي هي زرقة الأفق التي تشدها حول هذه الأماكن المنعزلة آلهتها السائدة . كنت طليقاً لأجول في حدود تلك المنطقة كما أهوى . لم يضع أبي أي قيود على تجوالي مع أني كنت مجرد طفل . في تجاويف التربة الرملية حرث ماء المطر أخاديد عميقة ، وشكَّل سلسلة من الكتل الصغيرة المليئة بالحصباء الحمراء والحصى المتنوعة الأشكال تمر عبرها السيول الصغيرة ، كاشفة جغرافية ليلليبوت . من تلك المنطقة كنت أجمع في حجر ثوبي الطويل حجارة كثيرة غريبة وأجلبها إلى أبي الذي لم

يستخف أبداً بمجهودي ، على النقيض كان يتحمس لها .

«رائع» هتف من أين حصلت على كل هذه؟

«هناك أكثر وأكثر بكثير ، ألوف مؤلفة !» أجيب بانفعال .

«أستطيع أن أجلب كُثْرَها كل يوم» .

«سيكون هذا لطيفاً» «أجاب» لم لا تزين تَلَّتي الصغيرة بها؟» حاولت حفر حوض في الحديقة ، لكن مستوى الأرض المشبعة بالماء كان منخفضاً ، لذا توقف الحفر الذي ترك خلفه رابية ترابية كان أبي يجلس على قمتها عند صلاته الصباحية عند شروق الشمس على حافة الرقعة المنفسحة المتموجة الممتدة إلى الأفق الشرقي أمامه . كانت هذه هي التلة التي طلب مني تزيينها .

كنت في غاية الضيق يوم تركنا بولبور إلى حد أني لم أقدر على أخذ حصيلتي من الحجارة . لم أعرف وقتها حق الملكية العقارية وأنه لايحق لي الادعاء المطلق على شيء لأبي جمعته فقط . لو أن القدر استجاب إلى صلاتي ونفذ ما أشتهيه كثيراً وكتب لي أن أحمل هذا الحمل من الحجارة معي إلى الأبد . لما كانت هذه القصة اليوم أمراً مضحكاً .

وجدت بالصدفة في أحد الوديان الصغيرة الضيقة حفرة مليئة بماء نبع طفى مثل جدول صغير تلعب فيه الأسماك الصغيرة وتشق طريقها عبر التيار «وجدت نبعاً جميلاً» أخبرت والدي « هل يمكن أن نأخذ ماء شربنا واستحمامنا منه؟» .

«أمر مثالي» قال موافقاً يشاركني بهجتي ، وأصدر أوامره بأن تؤخذ

حاجتنا من الماء من ذلك النبع .

لم أتعب مطلقاً من التجوال في تلك الوديان الصغيرة والسهول الشاسعة لعلي أقع بالصدفة على شيء لم يكتشف من قبل . كنت ليفنجستون تلك الأراضي التي تبدو كما لو إنها تشاهد من الطرف الخاطيء للمنظار المقرب . كان كل ما هناك من النخيل الصغير وشجر الخوخ البري القصير إلى شجر الجامبالان المعوق النمو يجاري سلسلة الروابي الصغيرة والجدول والسمك الصغير .

ربما ليعلمني معنى الحرص ، وضع أبي في إمرتي بعض النقود وطلب مني أن أحفظ حساباً بها . وثق بي أيضاً بتعبئة ساعته الذهبية الثمينة ، متغاضياً عن المجازفة بخرابها وذلك لرغبته تدريبي على الحس بالواجب عندما خرجنا معاً في نزهتنا الصباحية سيراً على الأقدام ، طلب مني أن أوزع الصدقات على الشحاذين الذين نصادفهم . لم أقدر على تقديم حساب صحيح له إطلاقاً . في أحد الأيام كان باقي الحساب أكبر ضمانة .

«يجب أن أعينك أمين صندوقي» علق والدي «يبدو أن النقود تتزايد في يديك» .

عبأت ساعته بحماس لا يعرف الكلل . بعد وقت قصير توجب إرسالها إلى مصلح الساعات في كلكتا .

يذكرني ذلك بأوقات لاحقة حين كنت أقدم حسابات الممتلكات لوالدي الذي كان يقطن آنذاك في بارك ستريت . كنت أفعل ذلك في

الثاني أو الثالث من كل شهر . لم يكن بإمكانه آنئذ قراءتها بنفسه . كان عليّ أن أقرأ المبلغ الإجمالي تحت كل باب وإذا كان عنده شك في أي نقطة يسأل عن التفاصيل . إذا كنت أحاول التغاضي أو إخفاء أي بند أخشى أن لا يعجبه ، من المؤكد أنه يسأل عنه . كانت تلك الأيام الأولى من كل شهر مدعاة للقلق بالنسبة لي . كما أسلفت ، اعتاد أبي أن يحفظ كل شيء واضحاً في عقله ، سواء كان ذلك أرقام حسابات أو تنظيمات رسمية أو زيارات أو تعديلات على الممتلكات . لم يشاهد قاعة الصلاة الجديدة في بولبور إطلاقاً ، غير أنه كان على علم بكل تفاصيلها من سؤاله اللذين جاءوا لرؤيته بعد زيارة المكان هناك . كانت ذاكرته غير عادية لا تبرحها معلومة إذا دلفت إليها .

وضع أبي إشارات على قصائده المفضلة في نسخته من «بهاجافادجتيا» وطلب مني نسخها له وترجمتها . كنت في البيت صبياً بلا اعتبار ، لكن حالما أوكلت إليّ هذه المهام شعرت بعظمة المنصب .

في غضون ذلك كنت قد تخلصت من دفتري الأزرق وحصلت على مجلد من يوميات ليتس . أصبحت أعتقد الآن أن على شعري التحلي بالجلال الشكلي . ليس الأمر مجرد كتابة قصائد ، بل الحفاظ على صورة لنفسي كشاعر إزاء مخيلتي . حين كتبت الشعر في بولبور كنت أحب فعل ذلك وأنا ممدد تحت فيء شجرة جوز هند صغيرة . بدا لي أن هذا هو السلوك السليم . وهكذا جالساً على الحصى القاسي غير

المكسو بالأعشاب تحت قيظ النهار الحارق ، نظمت أغنية عسكرية . حول «هزيمة الملك بريتفي» ، لم تنجُ من الموت المبكر رغم فيض روحها العسكرية . تبع هذا المجلد من يوميات ليتس نفس درب أخيه الأكبر ، دفتري الأزرق ، دون أن يخلف أثراً مبكر النضج .

غادرنا بولبور وتوقفنا قليلاً في الطريق في صاهيبجانج ، ودينابور والله آباد ، وكانبور ، وأخيراً توقفنا في أمر تيسار .

بقيت حادثة في الطريق محفورة في ذاكرتي ، وقف القطار في محطة كبيرة ، جاء جابي التذاكر وثقب التذاكر ، نظر إليّ باستغراب كما لو أن عنده شكاً لا يود الإفصاح عنه . ذهب وعاد مع زميل له . تململ الاثنان بعصبية لوهلة قرب باب مقصورتنا ثم ذهبا مرة أخرى . أخيراً جاء مدير المحطة بنفسه . نظر إلى البطاقة المخفضة وسأل« أليس هذا الصبي فوق الثانية عشرة من العمر؟» .

«كلا» أجاب والدي .

كنت في الحادية عشرة حين ذاك ، لكن كنت أبدو أكبر من سني .

«عليك بدفع التعريفة الكاملة عنه» أردف مدير المحطة .

لمعت عيون أبي ، ودون كلمة أخرج من صندوقه ورقة مالية وقدمها إلى مدير المحطة ، عندما عادوا ببقية المبلغ لأبي قذفهم به بازدراء ومدير المحطة مرتبك واقف بخجل لكشف خسة شكه هذا .

أسترجع المعبد الذهبي في ذاكرتي كالحلم . كثيراً ما اصطحبت أبي في الصباح إلى جوروداربار السيك هذا الجاثم في وسط البحيرة ،

حيث تسمع التراتيل المقدسة باستمرار . كان والدي يضم صوته أحياناً إلى ترنيمة التسبيح وهو جالس بين حشد المتعبدين الذين يرحبون بأي غريب ينضم إلى صلاتهم بحرارة والذي يعود محملاً بالعطايا الطاهرة من السكر البلوري والحلويات الأخرى . في أحد الأيام دعا والدي أحد أفراد جوقة من المنشدين إلى بيتنا حيث أنشد بعض الأغاني المقدسة . ذهب الرجل أكثر من راضٍ على المكافأة التي حصل عليها . بعد ذلك صار علينا أن نتخذ إجراءات صارمة للدفاع عن النفس ضد غزو جيش ملحاح من المغنين . حين وجدوا البيت منيعاً ، راح الموسيقاريون يكمنون لنا في الشوارع . في الصباح ساعة نخرج من بيتنا للنزهة سيراً على الأقدام ، يظهر تانبور معلّقاً على كتف بين الفينة والأخرى . أصبحنا مثل طرائد صيد تلاحقها فوهة بندقية الصياد ، وفي غاية القلق يفزعنا أي رنين تانبور ولو من بعيد ونفر منها دون أن تنجح في اصطيادنا .

حين يحل المساء ، كان أبي يجلس على الشرفة المقابلة للحديقة ويستدعيني لأغني له . كنت أرى بزوغ القمر يصب نوره الوضيء على أرض الشرفة عبر الأشجار وأنا أشدو راجا بيهاج :*

يارفيقي في أعتم ممرات الحياة . . . . .

يستمع أبي برأسه المطرق ويديه المضمومتين بإصغاء . أذكر المشهد

* راجا بيهاج : واحدة من أنماط الالحان التقليدية القديمة في الموسيقى الهندوسية(المترجم)

المسائي بكل وضوح . سبق وأن أخبرتكم عن متعة أبي حين سمع من سريكانثا بابو عن محاولتي البكر في القصيدة التعبدية . أذكر كيف حصلت بعد ذلك على تعويضي . كان العديد من الترانيم في إحدى مناسبات احتفالات Magh من تأليفي والتي تقول إحداها :

العين لا تراك ، يابؤبؤة كل عين

كان والدي طريح الفراش في شونشوار . أرسل في طلبي وأخي جيوتي . سأل أخي أن يصاحبني على الأرغن وأنا أغني كل ترانيمي واحدة تلو الأخرى ، بعضها مرتين . عندما انتهينا قال «لو أن ملك البلاد عرف هذه اللغة واستطاع تقدير آدابها ، لأوفر العطاء ولا ريب على الشاعر ، وحيث أن الأمر ليس كذلك ، أعتقد أن عليّ فعل ذلك .«وناولني شيكاً» .

جلب أبي معه بعض مجلدات بيتر بارلي ليدرسني منها . اختار «حياة بنجامين فرانكلين» كبداية . حسب إنها يمكن أن تخدم كقصة وتكون ممتعة ومثقفة لكن سرعان ما وجد خطأه بعد أن بدأنا . كان بنجامين فرانكلين شبيهاً برجال الأعمال أكثر مما يجب . أثار ضيق أخلاقيته المحسوبة اشمئزاز أبي . أحياناً يفقد الصبر لحصافة بنجامين الدنيوية لحد لا يملك عدم استعمال كلمات شجب قوية .

حتى ذلك الحين لم تكن لي علاقة بالسنسكريتية أكثر من تعلم بعض قوانين قواعد اللغة عن ظهر قلب دون فهم . بادرني أبي بكتاب قراءة السنسكريتية الثاني بوثبة واحدة تاركاً لي تعلم تصريف الأسماء أثناء

مسيرة التعليم . ساعدني تقدمي في البنغالية على جني فائدة عظيمة . شجعني أبي أيضاً على الكتابة بالسنسكريتية من البداية . كوّنت بالمفردات التي حصلت عليها من كتاب قراءة السنسكريتية كلمات مركبة متسمة بالمبالغة الحمقاء ومسرفة باستعمال الحرفين «م» و «نون» الطنانين جعلت لغة الآلهه خليطاً شيطانياً كبيراً . إلا أن والدي لم يهزأ من طيشي إطلاقاً .

ثم كانت هناك قراءات من كتاب «علم الفلك العام» لبروكتور ، فسرها لي والدي بلغة سهلة فيما بعد إلى البنغالية . من بين الكتب التي جلبها والدي لاستعماله الخاص والتي غالباً ما وجدت نفسي أحدق بها هي العشرة أو الاثنا عشر مجلداً من طبعة جيبون «روما» . كانت تبدو جافة جداً ، وكنت مجرد ولد عديم الحيلة . حسبت أن عليّ قراءة أكبر عدد من الكتب لأن عليّ فعل ذلك . لكن لماذا يتوجب على رجل بالغ غير مجبر على القراءة ، إلا إذا أراد ، أن يزعج نفسه بذلك؟ ! .

15

في الهملايا

مكثنا قرابة الشهر في أمرتيسار ، وفي منتصف شهر أبريل انطلقنا إلى تلال دالها وسي . بدت الأيام الأخيرة في أمرتيسار طويلة كأنها لن تمضي والهملايا تدعوني بقوة .

كنا نرى منحدرات التلال ونحن نصعدها في محفاتنا تلتهب بمحاصيل نبات الربيع المزهر . ننطلق كل صباح بحثاً عن الخبز والحليب ، وقبل المغيب نلتجيء إلى أقرب بيت تحت التعمير . لم ترتح عيناي لحظة طوال اليوم مخافة أن تفقدا شيئاً ولا ترياه . وحيثما تتشابك أشجار الغابة العظيمة عند منعطف درب لتصنع كتلة تسد الطريق يجري من تحت فيئها مسقط ماء نحيل رقيق ، مثل ابنة صغيرة تلهو عند قدمي حكيم جليل مستغرق في التأمل ، ويخر الماء فوق الصخور السوداء المكسورة بالطحالب ، هنا كان حاملو المحفات يضعون حملهم ليأخذوا قسطاً من الراحة . لماذا علينا أن نغادر مثل هذه البقعة؟ صاح قلبي الظميء . لم لا نبقى هنا إلى الأبد؟ !

الميزة العظيمة للرؤية الأولى أن العقل لا يعي قدوم المزيد ، عندما تدلف هذه الحقيقة ذاك العضو الحاسب يحاول فوراً تخزينها

للاستهلاك ، لا يغدو العقل بخيلاً إلا عندما يعتقد أن الشيء نادر . في شوارع كلكتا ، كنت أحياناً أتخيل نفسي أجنبياً ، آنئذ فقط أكتشف معنى أن يكون المرء مرئياً . الجوع للرؤية الحقة هو ما يقود الناس للترحال في المناطق الغريبة .

ترك والدي صندوق نقوده الصغير في عهدتي ، دونما سبب للاعتقاد بأني أفضل قيّم على المبلغ الضخم الذي أودعه فيه لنفقات الطريق . كان يمكن له التأكيد أن يشعر بأمان أكبر لو أوكل به لمرافقه كيشوري ، وعليه يمكنني الافتراض أنه أراد أن يزرع فيّ فكرة تحمل المسؤولية . في أحد الأيام عند وصولنا إلى بيت تحت التعمير ، غفلت أن أحوله له وتركته على منضدة فأنبني على ذلك .

كلما تم تعمير بيت ، كان والدي يأمر بوضع المقاعد لنا في الخارج لنجلس ، عند حلول الغسق تتوهج النجوم بروعة في جو الجبال الصافي ، ويريني أبي مجموعات النجوم الثابتة أو يحدثني عن الفلك .

كان البيت الذي نزلنا فيه في باكروتا يقع في أعلى قمة روبة ، والجو لا يزال شديد البرودة رغم اقتراب حلول شهر مايو ، وصقيع الشتاء في الجانب المظلل من التلة لم يذب بعد . لم يكن والدي عصبياً لتجولي بحرية في هذا المكان . في طريقي تحت بيتنا يمتد جذر ناتيء سميك لشجرة أرز هملايا . كنت أذهب وحيداً إلى تلك القفار وعصا ذات طرف حديدي مستدق في يدي . ياللأشجار الفخمة الشاهقة فوقي

مثل المردة ! ياللظلال العظيمة ! ! أي حياة طويلة عاشت عبر القرون ! ! مع ذلك هاك الصبي الذي ولد بالأمس يدب بين جذوعها دون تحد . خيل لي بأنني أحس بوجود روح في اللحظة التي تطأ قدمي ظلالها كالزواحف العظائية القديمة المصنوع جسمها البارد الصلب كثير الحراشف من مختلف الألوان ومظلل بورق أرض الغابة العفن .

كانت حجرتي في أقصى أحد أطراف البيت ، كان بإمكاني وأنا مُسْتلق على فراشي رؤية ذرى الجبال الثلجية البعيدة تومض بوهن تحت ضوء النجوم عبر النوافذ المشرعة الستائر . أحياناً وأنا نصف مستيقظ في أي ساعة لا أدري ، كنت أرى والدي متلفعاً بشال أحمر وبيده مصباح مضاء يمر بهدوء إلى الشرفة المطلية المصقولة ويجلس ليؤدي صلاته بعد أن يغلبني النعاس أجده قرب سريري يوقظني بهزة قبل أن يذوي الظلام من الليل . كانت تلك الساعة مخصصة لحفظ تصريف الأسماء في اللغة السنسكريتية . يا لها من يقظة شتائية مؤلمة من دفء الأغطية اللطيف .

عند شروق الشمس ينضم إليّ والدي بعد الانتهاء من صلاته لشرب حليب الصباح ، ومن ثم يقف لمناجاة الله مرة أخرى بغناء أو بإنشاد ، وبعد ذلك يذهب للتنزه سيراً على الأقدام . لكن كيف لي أن أجاريه؟ كثيرون من البالغين يعجزون عن ذلك . بعد قليل أتوقف عن مجاراته وأعود إلى البيت من طريق مختصر قصير متسلقاً سطح الجبل . عند عودة أبي أدرس الإنجليزية لمدة ساعة وفي العاشرة أستحم بالماء

الثلجي . لا جدوى من استعطاف الخدم تلطيف حرارة الماء ولو بإضافة إبريق من الماء الساخن دون أخذ إذن . لتشجيعي كان والدي يخبرني عن الحمامات الثلجية التي لاتطاق التي كان يتحملها في صغره .

كان شرب الحليب عقوبة أخرى . والدي مغرم بالحليب وباستطاعته شرب كميات منه ، لكن قابليتي له كانت مفقودة ، هل ذلك لأني فشلت في وراثته أم لتجاربي المبكرة غير المحببة والحليب؟ ! لا أدري . من سوء الحظ اعتدنا أن نشرب الحليب معاً ، لذا توجب عليّ أن ألقي بنفسي تحت رحمة الخدم ولطفهم أو ضعفهم الإنساني ، وأكون مديناً لهم إذا ملأوا نصف قدحي برغوة الحليب . بعد الغداء تبدأ دروسنا مرة أخرى . هذا أكثر مما يستطيع اللحم والدم تحمله . فيثأر رقادي الصباحي المنتهك حين أخلد للسبات المهيمن . لكن ما إن يرأف والدي لحالتي ويطلق سراحي حتى يزول نعاسي لألبي نداء رب الجبال .

كثيراً ما كنت أتجول من قمة إلى أخرى وعصا بيدي ، دون احتجاج والدي . لاحظت أنه لم يقف أبداً في طريق استقلالنا حتى آخر يوم في حياته . كنت مراراً أفعل أو أتفوه بأشياء لا توافق رأيه ولا ذوقه على حد سواء ، وكان بإمكانه إيقافي بكلمة . لكنه فضّل الانتظار حتى يأتي حافز الإحجام من الداخل . لم يكن القبول السلبي للصواب واللائق ليرضيه ، أراد منا أن نحب الحقيقة من صميم قلوبنا ، وكان يعلم أن

مجرد الإذعان دون الحب أمر فارغ ، ويعلم أيضاً أن الحقيقة إذا ضل عنها ، يمكن أن توجد ثانية ، لكن الالتزام الأعمى أو المفروض بالقوة يعوق في الواقع الوصول إليها .

في أيام صباي المبكرة ، كنت أحلم بالترحال في جراند ترنك رود وحتى بشاور في عربة يجرها عجل . لم تلق الخطة التأييد من أحد ، وصدَّها كثيرون كاقتراح عملي ، لكن عندما أخبرت والدي بها كان على يقين بأنها فكرة عظيمة لأن السفر بالقطار لايستحق الذكر ، واسترسل فوراً في سرد مغامراته التي قام بها سيراً على الأقدام أو ظهور الجياد ، ولم يذكر كلمة عن الخطر أو المشقة .

مرة أخرى عند بداية تعييني سكرتيراً لأدي براهو ساماج ، ذهبت لوالدي في مقر إقامته في بارك ستريت وأخبرته أني لا أقر إقامة الشعائر الدينية الجماعية البراهمية فقط وإقصاء ممارسات الطوائف الأخرى . دون أيما تردد أعطاني الإذن لتصحيح الوضع إذا استطعت . وجدت وأنا المتسلح بالتفويض أنني أفتقر إلى القوة . كنت قادراً على اكتشاف عدم الكمال ، ولكني عاجز عن خلقه . أين الرجال؟ أين القوة في داخلي لأجذب الرجل المناسب؟ هل أملك الوسائل لأشيد مكاناً ما يمكن أن أهدمه؟ حتى يأتي الرجل المناسب ، أي شكل أفضل من لاشيء . شعرت أن هذه وجهة نظر والدي ، غير أنه لم يحاول ولو للحظة أن يحبط من همتي بذكر هذه المصاعب .

تماماً كما سمح لي بالتجول في الجبال كما أهوى ، ترك لي الحرية في

اختيار سبيلي في طلب الحقيقة . لم يثنه عن ذلك إمكانية ارتكابي للأخطاء ، ولم يفزعه احتمال مواجهتي للمحن والأحزان . آمن برفع القيم لا عصا التأديب .

كثيراً ما كنت أتكلم معه عن البيت ، وكلما استلمت رسالة من أيٍ كان من هناك أريه إياها فوراً . أعتقد أني وفرت له لحات ما كان لأحد آخر أن يوفرها ، هو أيضاً سمح لي بقراءة رسائل إخوتي الكبار له . كانت هذه طريقته لتعليمي كيف أكتب له ، لأنه لم يبخس بأي شكل المظاهر الخارجية للأعراف والتقاليد الشعائرية . أذكر كيف اشتكى أخي الثاني في إحدى الرسائل من عمله المجهد وأنه غارق حتى العنق في وظيفته معبراً عن نفسه إلى حد ما باللغة السنسكريتية . سألني والدي أن أفسر له معناها بإيجاز . قمت بذلك على طريقتي الخاصة ، لكنه ظن أن تفسيراً آخر أفضل . بغروري المتعجرف وزهوي بنفسي ، تمسكت برأيي وناقشت طويلاً . كان يمكن لشخص آخر غير أبي أن يوقفني فجأة بازدراء ، لكن والدي أصغى إليَّ بصبر وتحمل العناء ليبرر وجهة نظره .

أحياناً كان يروي لي قصصاً فكاهية ، ونوادر وملحاً من أيام شبابه الجميل . قال كان ثمة متأنقون تبدو الحاشية المطرزة أو حتى موصلين دكّا الرقيق في منتهى الخشونة لجلودهم الناعمة ، ولفترة كان عندهم ارتداء الموصلين بحواش ممزقة قمة الأناقة . سررت جداً أيضاً حين سمعت أول مرة من أبي قصة بائع الحليب الذي يشك أنه يخلط

الحليب بالماء . وكلما اختار أحد زبائنه عدداً أكبر من الرجال للإشراف على حلبه ، كلما ازداد الحليب زرقة ، أخيراً عندما استجوب الزبون بائع الحليب بنفسه وطلب منه تفسيراً . أجاب الرجل بفظاظة أنه إذا توجب إرضاء مراقبين أكثر فإن الحليب قد يصبح صالحاً لتربية السمك فقط .

بعد أن قضيت بضعة شهور معه ، أعادني والدي إلى البيت مع مرافقه كيشوري .

16

عودتي

انهارت قيود النظام الصارم التي كبلتني إلى الأبد حين تركت البيت . عند عودتي حصلت على بعض الحقوق . قبل ذلك أقصاني قربي الشديد من الآخرين عن فكرهم . بابتعادي وعودتي أصبحت موضع اهتمام . ظهرت دلالة التقدير القادم أثناء رحلة العودة التي قمت بها وحيداً إلا من مرافقي . كنت أطفح بالصحة والنشاط وأبدو رائعاً بقلنسوتي المذهبة ويلاطفني كل المسافرين الإنجليز الذين صادفتهم في القطار .

لم يكن وصولي مجرد عودة للبيت ، بل عودة من منفى جناح الخدم إلى مكاني الصحيح في المقصورات الداخلية . أصبحت أحتل مقعد شرف كلما اجتمع أهل البيت الداخلي في حجرة أمي . وجادت عليّ أصغر عروس في بيتنا بفيض من العواطف والاعتبار . في الطفولة يكون الحصول على رعاية المرأة وحبها دون طلب ، ولكونه ضرورياً جداً مثل النور والهواء فإنه يعتبر ببساطة أمراً مسلماً به . في الواقع كثيراً ما يتململ الأطفال بعصبية لتحرير أنفسهم من شرك عناية المرأة

المفرطة . لكن أي مخلوق يحرم منها في وقتها الحقيقي هو متسول بحق . كان هذا مأزقي بعدما نشأت في جناح الخدم . لذا حين غمرت فجأة بالحنان الأنثوي الوافر ، لم يكن بميسوري عدم ملاحظة ذلك .

في الأيام المبكرة كانت المقصورات الداخلية بعيدة المنال ، فردوس أحلامي جناح الحريم الذي يبدو من الخارج سجناً ، كان بالنسبة لي مقر كل الحريات . لم تكن هناك لا مدرسة ، ولا مدّرس ولم يبدُ لي أن أي إنسان يفعل ما لا يرغبه . كان لفراغها الانعزالي مسحة غامضة ، يلهو أو يفعل ما يهواه دون أن يقدم تقريراً عن أفعاله . يصدق ذلك بشكل خاص في حالة أختي الصغيرة التي كانت تشاركنا في دروس المدرس نيل كما ، لكن بدا إنها لا تكترث إذا كان تحصيلها جيداً أو سيئاً . في الوقت الذي كنا نسرع فيه في تناول إفطارنا قبل العاشرة لنحضر أنفسنا للمدرسة ، كانت تسير وجديلتها مدلية خلفها بعدم اكتراث في البيت ، وبذلك تعذبنا إلى حد الذهول . ويوم جاءت العروس الجديدة إلى بيتنا مزدانة بقلادتها الذهبية ، ازداد غموض المقصورات الداخلية عمقاً . هي التي جاءت من الخارج وأصبحت منا ، مجهولة وملكنا ، جذبتني إليها بغرابة ورحت أحترق تشوقاً لصداقتها . لكن ما أن أجد وسيلة بالحيلة للاقتراب منها حتى تقصيني أختي الصغيرة بخشونة قائلة « ماذا تريدون يا أولاد من هنا؟ هيا انصرفوا خارجاً» طعنتني الإهانة بالإضافة إلى خيبة الأمل في الصميم . عبر الأبواب الزجاجية يمكن اختطاف لمحات سريعة لكل

أنماط الألعاب الغريبة وإبداعات الخزف الصيني والزجاج ، بهية في ألوانها وزخرفتها . لم نعتبر جديرين بالاعتبار حتى للمسها ، فكيف لنا باللعب فيها ، هذه الحاجيات التي بدت لنا نادرة ورائعة ، أضفت على المقصورات الداخلية فتنة زائدة .

هكذا بقيت على بعد مدى ذراع بالرفض المتكرر . العالم الخارجي غير متوفر لي وكذلك للأسف العالم الداخلي . القليل الذي رأيته منها ترك لدي انطباعاً مثل مجموعة من الصور الزيتية . مثلاً ، الساعة الآن العاشرة مساءً ، ودروسي مع اجور بابو قد انتهت . أدلف إلى الداخل لآوي للفراش . مصباح مضبب متأرجح معلق في البهو الفينسي المجلل الطويل الذي يقود من المقصورات الخارجية إلى الداخلية في آخره ، يصبح الممر سلماً من أربع أو خمس درجات لا يصلها النور والتي منها أمر إلى القاعات المحيطة بفناء الطابق الداخلي الأول ، بصيص من نور القمر ينحدر من السماء الشرقية إلى الجزء الغربي لهذه الشرفات مخلفاً ما تبقى في الظلمة . في رقع النور هذه تجتمع الخادمات جلوساً على الأرض ، أرجلهن ممدودة وعلى أفخاذهن يلففن نفايات القطن لصنع فتيل مصباح ، ويتحدثن بصوت منخفض عن قراهن .

كثير من مثل هذه الصور مطبوعة في ذاكرتي ويتعذر محوها ، من الصور الأخرى وقت ما بعد العشاء الذي يبدأ بغسل أيدينا وأقدامنا على الشرفة قبل أن نضجع في المكان الفسيح على أسرّتنا ؛ عندئذ تأتي إحدى المربيات ، كنكاري أو شانكاري ، وتجلس قرب رؤوسنا وتغني

لنا بصوت منخفض عذب قصة الأمير الذي ارتحل وارتحل في المستقعات المنعزلة ، وعندما تصل إلى نهاية القصة يخيم الصمت على الحجرة . أحملق والحائط قبالتي في الرقع البيضاء والسوداء التي سببها سقوط الجص هنا وهناك والظاهرة قليلاً في الضوء الخافت ، فأستحضر كثيراً من الصور الرائعة وأنا أسقط في بحر النوم . وأحياناً خلال الليل ، وأسمع وأنا نصف نائم نداءات الحارس العجوز سوار أب وهو يدور من شرفة إلى أخرى .

ثم جاء النظام الجديد ، من عالم الحلم الداخلي المعروف فقط في خيالاتي ، جاء كل الاعتراف الذي كنت أصبو إليه ، وأكثر من ذلك ، عندما تحقق فجأة من تراكم الأعمال غير المنجزة في موعدها ، ماكان يجب أن يحدث بشكل طبيعي يوماً بعد يوم ، ليس بوسعي القول إن رأسي لم يصب بالدوار .

كان المسافر الصغير مشبعاً مأخوذاً برحلاته ، وفي كل تكرار تصبح القصة أقل ارتباطاً لحد إنها ترفض مطابقة الحقائق تماماً . مثل واحسرتاه أي شيء آخر . تغدو القصة مبتذلة ويعاني مجد القاص من نفس العوارض ، لذا عليه أن يضيف إليها ألواناً جديدة كل مرة ليحافظ على نضارتها .

كنت بعد عودتي من التلال المتحدث الرئيسي في جلسات أبي في الهواء الطلق على سطح البيت ، في المساء . يصعب مقاومة إغراء أن يصبح المرء مشهوراً في عيون أمه ، حيث أن مثل هذه الشهرة سهلة

البلوغ . حين كنت في المدرسة النظامية ووجدت في بعض كتب القراءة أن الشمس أكبر من الأرض بمئات والآف المرات ، أخبرت أمي بذلك رأساً . يثبت ذلك أن بإمكان الشخص الذي يبدو صغيراً أن تكون له عظمة ما . كنت ألقي عليها نبذاً من الشعر المستعمل كأمثلة توضيحية في فصل علم العروض أو البلاغة من كتابنا لقواعد اللغة البنغالية . الآن صرت أسرد في جلساتها المسائية أنباء الفلك السارة التي جمعتها من بروكتور .

انتسب تابع أبي كيشوري مرة إلى فريق من رواة أغاني داشارائي المقفاة للملاحم . قال لي مراراً ونحن في التلال معاً «آه يا أخي الصغير ، لو كنت في فريقنا لقدمنا عرضاً رائعاً» . يمكن لهذا أن يفتح أمامي صورة مغرية للترحال من مكان إلى آخر كصبي مغن في فرقة كوميدية ، ألقي وأشدو بالأشعار ، تعلمت كثيراً من مذخوره الغنائي والملحني أكثر من حديثي عن سطح الشمس النير أو أقمار زحل العديدة . غير أن أعظم إنجازاتي في نظر أمي أني كنت أقرأ مع أبي «مهارشيفالميكي» بلغته الأصلية وبالوزن السنسكريتي وكل شيء ، في الوقت الذي كان باقي نزلاء المقصورات الداخلية قانعين بترجمة كريتيفاس البنغالية لرامايانا . « اقرأ لي قليلاً من هذه الرامايانا ، اقرأ » قالت لي . أشعر بفرحة غامرة حين أذكر ذلك الآن .

كانت قراءتي لفالميكي محصورة ، واحسرتاه ، على المختارات القصيرة من «رامايانا» الموجودة في كتاب قراءتي السنسكريتي ، وحتى

ذلك لم أتقنه تماماً . علاوة على ذلك ، عندما أعيد النظر في ذلك ، أجد أن الذاكرة خدعتني وأن كثيراً مما حسبت أني أعرفه أصبح ضبابياً ، لكني كنت أفتقر إلى الشجاعة لأقول لأمي المتلهفة المنتظرة عرض مواهب ابنها العظيمة « لقد نسيت» ، لذا كان مفهوم فالميكي وتفسيري مختلفين جداً . لا بد وأن ذاك الحكيم رقيق الفؤاد غفر من مقعده في السماء لتهور وطيش صبي يطمح لفخر واستحسان امه ، لكن الله لن يغفر له .

أرادت أمي التي لم تملك السيطرة على عواطفها حيال مآثري غير العادية أن يشاركها الجميع في إعجابها ، « عليك أن تقرأ هذا على دويجيندرا» قالت . شعرت في سريرتي وأنا أقدم كل الأعذار التي يمكنني التفكير بها أني وقعت في مأزق ، لكن أمي لم تقتنع بأي منها . أرسلت في طلب أخي الأكبر وما أن وصل حتى رَّحبت به بقولها« أسمع رابي يقرأ رامايانا» فالميكي ، بأي روعة يفعل ذلك» . لم يكن مفر من القراءة ! لكن إله الكبرياء ترفق وخلصني بنفحة من قدرته . كان أخي مشغول البال ، لذا لم يبدِ أي حماس لسماعي تقديم السنسكريتية باللغة البنغالية . ما أن قرأت بضعة قصائد ، حتى علق ببساطة : «جيد جداً» وخرج .

وجدت صعوبة في الاستمرار في حياتي المدرسية وأنا أتابع ترقيتي إلى المقصورات الداخلية . التجأت إلى كل الذرائع للهرب من الأكاديمية البنغالية ، بعد ذلك حاولوا وضعي في سانت اكزافيرا ، إلا

أن النتيجة لم تكن أفضل . بعد بضعة محاولات متقطعة فقد إخوتي الكبار كل رجاء بي ، وتوقفوا حتى عن تأنيبي ، قالت أختي الكبيرة مرة«كنا جميعاً نأمل أن يصبح رابي رجلاً ،لكنه صار أكبر خيبة لنا» .

خالجني شعور بأن تقديري للعالم الاجتماعي يتناقص ولا ريب ، ومع ذلك لم أقدر على إلزام عقلي بكدح المدرسة الأبدي المنفصم تماماً عن الحياة والجمال والذي يبدو مزيجاً شائناً قاسياً من السجن والمستشفى .

لا تزال إحدى ذكريات سانت اكزفيرا ناصعة قوية في ذهني وهي تخص المدرسين ،ليس لأنهم جميعاً ممتازين . ليس بوسعي أن أميز ، من بين من درسونا ، تواضعاً أو تفانياً خاصاً . لم يكونوا كفريق بأفضل من آلة التعليم لمعلمي المدارس . حين تعمل وحيدة فإن آلة التعليم قوية لا ترحم . لكن عندما تقترن الأنماط الخارجية للدين بها مثل حجر الرحى ، يُسحق قلب الفتى فتاتاً ، كان حجر الرحى الذي عندنا في سانت اكزفيرا من هذه النوعية . مع ذلك ، كما أسلفت ، أملك ذكرى ترفع من انطباعي عن المدرسين هناك إلى مستوى مثالي .

لم يكن للأب دو بينير اندا صلة كبيرة بنا . إذا ذكرت جيداً ، كان بديلاً مؤقتاً لأحد مدرسي فصلنا . كان أسبانياً ويبدو أن عنده عائقاً في لسانه حين يتكلم الإنجليزية . لعل هذا يفسر قلة انتباه الطلاب لما يقول . شعرت أن هذا يؤلمه ، لكنه تحمله يوماً إثر يوم بسعة صدر . لا أدري لماذا؟ غير أن قلبي مال إليه . لم تكن قسماته جميلة ، لكن

لوجهه قابلية غريبة . كلما نظرت إليه كانت روحه تبدو وكأنها في صلاة ، ويعمه سلام عميق من الداخل والخارج .

كان عندنا نصف ساعة للنسخ في دفتر الخط ، ذاك هو الوقت الذي يشرد فيه ذهني وقلمي في يدي وتسرح أفكاري هنا وهناك . في أحد الأيام كان الأب دوبتيير اندا مسؤولاً عن هذا الدرس . كان يروح جيئة وذهاباً خلف مقاعدنا ، ولا بد أنه لاحظ أكثر من مرة أنَّ القلم في يدي لا يتحرك . على حين غرة وقف خلف مقعدي ومال نحوي بلطف واضعاً يديه على كتفي وسألني برفق «ألست على مايرام ياطاغور؟» . كان مجرد سؤال بسيط ، لكنه سؤال لن أنساه أبداً .

لا أملك الكلام نيابة عن الآخرين ، لكني أحسست فيه حضور روح عظيمة ، وحتى اليوم يبدو أن استعادة ذكراه تنقلني إلى العزلة الصامتة ولمعبد الله .

كان هناك قسيس آخر يحبه جميع الطلاب اسمه الأب هنري ، يدرس الفصول العليا ، لذا لم أعرفه جيداً ، لكني أذكر شيئاً عنه . كان يتقن البنغالية . سأل مرة نيرادا* ، طالباً في فصله ، عن أصل اشتقاق اسمه .

لم يكن نيرادا المسكين ، الواثق من نفسه ، مهيئاً بأي شكل للإجابة على هذا السؤال لأنه لم يفكر إطلاقاً في اشتقاق اسمه . مع ذلك أن

---

* نيرادا : في السنسكريتية تعني غيمة . وهي كلمة مركبة من نيرا=الماء ودا= المعطي ، الواهب ، في البنغالية تلفظ نيرود

يهزم الإنسان من قبل اسمه ، والقاموس مليء بالمفردات العويصة غير المعروفة ، لأمر مخيف ، كأن يدهس الإنسان بعربته ، لذا أجاب نيرادا دون خجل « ني تعني سبب الحرمان ، رود تعني أشعة الشمس ، وعليه فإن نيرود تعني الذي يتسبَّبُ في مغيب أشعة الشمس» .

17

دروس البيت

أصبح جيان بابو ، ابن البانديت فيدانتا فاجيش ، الآن مدرسنا في البيت ، عندما وجد أنه لا يستطيع شد انتباهي إلى الدروس المدرسية ، تخلى عن المحاولة اليائسة وسلك سلوكاً مختلفاً . رحنا ندرس «مولد إله الحرب» لكاليداس وهو يترجمها لي . قرأ لي «مكبث» أيضاً ، يشرح النص أولاً بالبنغالية ثم يبقيني في حجرة الدراسة لأقوم بترجمة ماقرأناه في ذلك اليوم إلى شعر بنغالي . وهكذا جعلني أترجم كل المسرحية . من حسن طالعي أني فقدت تلك الترجمة وبذلك تخلصت من عبء كرماتي .*

كانت وظيفة البانديت رامسار فاسوا هي مراقبة تقدمنا في السنسكريتية . تخلى هو أيضاً عن مهمته الفاشلة في تعليم قواعد اللغة لطالب غير راغب فيها ، وعوض ذلك قرأ معي ساكونتالا . في أحد الأيام أقنعني أن أعرض ترجمتي لمكتب على البانديت فيديا ساجار

* الكرما : العاقبة الاخلاقية لأعمال المرء التي تقرر قدره في الاعتقاد البوذي في طور تناسخي تال . (المترجم)

وأخذني معه إلى بيته . كان راج كريشنا موكهيرجي في زيارته ويجلس معه . كان قلبي يخفق عندما دخلت حجرة دراسة المعلم العظيم المليئة بالكتب ولم يساعد محياه البسيط في استعادة شجاعتي ، مع ذلك وحيث أن هذه هي المرة الأولى التي أقف فيها أمام مستمعين مميزين ، فإن رغبتي في كسب الشهرة كانت قوية . أعتقد أني عدت إلى البيت راضياً . دلل راج كريشنا عن رضاه بنصحي أن ألزم الحذر بالحفاظ على لغة ووزن أجزاء الساحرات مختلفاً عن الشخصيات الإنسانية .

في أيام صباي المبكر ، كان رصيد الأدب البنغالي ضئيلاً ، وأظن أني قرأت كل الكتب الموجودة فيه المقروءة وغير المقروءة . لم يكن الأدب الخاص بالأحداث قد تطور ، غير أني متأكد أن هذا لم يسبب لي أي أذى .

المادة الهزيلة التي تقدم للصغار هي نوع من الرحيق الأدبي المخفف الذي يعتبرهم أطفالاً ، ولا يتضمن أي منها إمكانية البلوغ يوماً . على كتب الأطفال أن تكون مفهومة جزئياً من الأطفال وجزئياً غير مفهومة .

قرأت في طفولتي كل كتاب وقع تحت يدي من الغلاف إلى الغلاف ، وكان لكل ما فهمته أو لم أفهمه نتيجة جيدة . هكذا يتفاعل العالم مع وعي الطفل الذي يجعل ما يفهمه ملكه ويأخذه ما هو أعلى من مستواه خطوة إلى الأمام .

عندما نشرت هجائيات دنيابا نبدهو متيرا ، لم أكن قد بلغت السن

الذي تناسبه . كانت إحدى قريباتنا تقرأها ولم تقنعها أي من توسلاتي بإعارتي الكتاب . كانت تحفظ الكتاب بقفل ومفتاح وجعلتني استحالة الوصول إليه أريده أكثر . لقد قررت توجب قراءة الكتاب .

كانت في عصر أحد الأيام تلعب الورق ومفتاحها معلق في طرف ساريها المدلى من على كتفها . لم أعر لعب الورق الانتباه يوماً ، في الواقع لا أستطيع تحمل لعب الورق . بيد أن سلوكي في ذلك اليوم لم يعزز هذا الشعور ، لذا انهمكت تماماً في لعبتهم . أخيراً أوشك طرف على تحقيق الفوز ، وفي جو الإثارة اغتنمت فرصتي ورحت أحل العقدة التي بها المفتاح بسرعة . لم أكن ماهراً فقبض عليَّ . رفعت صاحبة الساري والمفاتيح مبتسمة الطية عن كتفها وألقت بالمفاتيح في حجرها واسترسلت في اللعب .

من ثم عثرت على خدعة . كانت قريبتي مغرمة بالبان ، فأسرعت بوضع شيئاً منه أمامها . حين نهضت للتخلص من البان الممضوغ انتقلت مفاتيحها من حجرها إلى كتفها ، في تلك اللحظة سُرقت ، المتهم فر بعيداً ، والكتاب قرأ ! حاولت صاحبة الكتاب زجري ، إلا أن المحاولة فشلت وضحك كلانا .

كان الدكتور راجيندرا لال ميترا يحرر مجموعة كتابات شهرية موضحة في موضوعات مختلفة ، يملك أخي الثالث منها مجلداً سنوياً في مكتبته ، وقدر لي الحصول عليه . لازلت أسترجع متعة قراءته مراراً وتكراراً . قضيت قيلولات عطل عديدة مضجعاً على

فراشي وهذا المجلد المريع جاثم على صدري أقرأ عن كركدن البحر أو غرائب العدالة التي قضى بها كبار كازيز أو قصة كريشنا كوماري الرومانسية .

لم لا نملك مثل هذه المجلات اليوم؟ !

عندنا مقالات فلسفية وعلمية من جهة وقصص وأشعار ورحلات خالية من التشويق والمتعة من جهة أخرى ، لكننا نفتقر إلى المجلات المنوعة غير المدعية التي بإمكان الإنسان العادي قراءتها براحة مثل شامبرز أو كاسيل أو ستراند في الإنجليزية ، والتي تقدم قسطاً بسيطاً مرضياً من المنفعة العظيمة لأكبر عدد ممكن .

صادفت في صباي دورية صغيرة أخرى تدعى «أبودهابابدهو» -رفيقة الإنسان العادي- . التهمت مجموعة من أعدادها الشهرية وجدتها في مكتبة أخي الكبير يوماً بعد يوم ، وأنا جالس على عتبة مكتبه وقبالتي جزء ضئيل من السطح الجنوبي . في صفحات هذه المجلة تعرفت أول مرة على شعر بيهاري لال شاكرافارتي الذي راقت لي قصائده أكثر من أية قصائد أخرى قرأتها حين ذاك . أيقظت ألحان قصائده الغنائية البسيطة في نفسي موسيقى الحقول وفُرَج الغابات .

على نفس هذه الصفحات أهدرت دموعاً حارة على ترجمة «بول وفيرجيني» الحزينة . على شاطئ ذاك البحر الرائع يلعب النسيم بغابات جوز الهند التي تقبع خلفها منحدرات تفعمها بالحياة أمعز الجبال التي تطفر مرحاً ، أي سراب منعش لأيد تستحضر القصة لي

على ذاك السطح في كلكتا . أجل ! الحب الذي أزهر في شعاب غابة تلك الجزيرة المنعزلة بين الصبي البنغالي القاريء و فيرجيني الصغيرة التي تغطي رأسها بوشاح متعدد الألوان !

من ثم جاءت «مرآة البنغال» لبانكيم لتأخذ بشغاف القلب البنغالي . كان انتظار صدور العدد القادم شهراً أمراً سيئاً ، غير أن انتظار الكبار ليفرغوا من قراءتها أمرٌ لا يحتمل ! اليوم يمكن لأي شخص إذا أراد أن يلتهم كل شاندرا شيكهار أو بيشابريكشا بلقمة واحدة . إلا أن عملية التشوف والتوقع شهراً تلو شهر ، وتمديد المتعة المركزة لكل فرد قراءة قصيرة لفترات فاصلة طويلة ، والتفكير ملياً في كل حلقة مرات ومرات وأنت في انتظار وترقب الحلقة التالية ، مزيج الرغبة الملحة والرضا ، وحرقة الفضول وإشباعها : هذه المسرات المطولة لن يتذوقها أحد ثانية .

أثار اهتمامي أيضاً ، جمع وتصنيف سارادا ميتير واكشاي ساكار لقصائد الشعراء القدامى . كان من يكبروننا من أفراد العائلة مشتركين في هذه المجلات ، لكنهم لا يقرأونها بانتظام ، لذا لم يكن من العسير عليَّ الحصول عليها . شدتني لغة فيدياباتي الميثيلية الغريبة والمحرفة لعدم وضوحها . حاولت فهم مأربه دون مساعدة ملاحظات المصنف ، مدوناً في دفتري كل الكلمات المبهمة كما وردت في سياق النص بعدد المرات التي ذكرت بها . كما دونت أيضاً كل مافهمته مما هو غير مألوف من القواعد اللغوية .

18

محيطي المنزلي

كان المناخ الفني الذي هيمن على بيتنا ميزة عظيمة استمتعت بها في صباي . أذكر كيف كنت أتكىء عندما كنت صغيراً على قضبان الشرفة المطلة على المبنى المنفصل الذي يشمل غرف الاستقبال المضاءة كل مساء حيث تصطف العربات الفخمة تحت رواق مدخل المبنى والزوار يدلفون ويخرجون في حركة دؤوبة . لم اكتشف ما كان يجري ، غير أني كنت أحملق في صفوف النوافذ المضاءة من مكاني في الظلمة . لم تكن المسافة التي تفصلني جسدياً عنهم بعيدة ، بيد أن الهوة الفكرية بينهم وبين عالمي الطفولي كانت شاسعة .

كتب ابن عمي جانيندرا ، الذي يكبرني ، مسرحية عرضت في البيت تحت إشراف الباندیت کارکاراتنا . کان حماسه للأدب والفنون الجميلة لا يعرف حدوداً ، كما لو أنه وفرقته يناضلون لأحداث نهضة كالتي نراها اليوم في كل مجال . لقد استيقظ فيه ومن حوله شعور قومي جلي في اللباس والأدب والموسيقى والفن والمسرح . كان طالباً متوقد الذكاء في تاريخ بلدان عدة ، وشرع في تدوين عمل تاريخي بالبنغالية

لم يستطع إكماله . ترجم ونشر المسرحية السنسكريتية «فيكرامور فاسي» وألفَّ العديد من التراتيل المعروفة . يمكن القول إنه شق لنا الطريق لكتابة القصائد والأغاني الوطنية . كان ذلك حين كانت احتفالات «هندو ميلا» تقليداً سنوياً . كانت أغنيته تقول «هل أنا خجل لأغنّي أمجاد الهند» .

كنت لا أزال طفلاً عندما توفي ابن عمي جانيندرا في ريعان الشباب . يستحيل على من عرفوه نسيان محياه الوسيم وبنيته الطويلة الجليلة . كان له تأثير لا يقاوم على الآخرين ، وفي ميسوره جذب الرجال إليه وإبقاؤهم مرتبطين به ، وحين يكونون في حضرته يضحى الارتباط غير قابل للكسر . كان نمطاً مميزاً في بلدنا يوطد نفسه بيسر بفضل سحره الشخصي في قلب عائلته وقريته . في بلدان أخرى ، حين تؤسس الجماعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية المهمة ، يصبح مثل هؤلاء الناس قادة وطنيين . تحتاج المقدرة على تنظيم عدد غفير من الناس في جماعة إلى عبقرية من نوع خاص في بلدنا ، مثل هذه العبقرية تتبدد هباءً منثوراً ، يبدو لي مثل قلع نجمة من القبة السماوية عوض إشعال عود كبريت .

لا زلت أذكر بشكل أفضل أخاه الأصغر ، ابن العم جونيندرا الذي أيضاً ملأ البيت بشخصيته ، ووسع قلبه الرؤوف الكبير الأقارب والأصدقاء والضيوف والعائلة على حد سواء أكان في شرفته الجنوبية الواسعة أو في المرجة الخضراء قرب النافورة ، أو على حافة الحوض في

منصة صيد السمك ، كان الناس يلتفون حوله لينعموا بحضوره الشبيه بخير مجسد . أبقاه تقديره العظيم للفن والموهبة مشعاً بالحماس المتقد . كانت الأفكار الجديدة للمهرجانات وحفلات السمر والعروض المسرحية أو أي تسليات أخرى ، تجد نصيراً جاهزاً وتنجح بمساعدته وتؤتي ثمارها وأهدافها .

كنا أصغر من أن نشارك في هذه الفعاليات ، لكن أمواج المرح والحنين التي بعثتها قدمت وطرقت أبواب فضولنا . أذكر كيف تمّ التدريب على عرض ساحر ألفه أخي الأكبر في قاعة استقبال ابن عمي الكبيرة . كان بميسورنا من موقعنا خلف قضبان شرفة بيتنا ، سماع قهقهات الضحك ممزوجة بأصوات الأغاني الفكاهية القادمة عبر النوافذ المفتوحة قبالتنا ، وبين فينة وأخرى نلمح أيضاً تصرفات أتشاي مازودار الغريبة غير العادية . لم نقدر على فهم الأغاني تماماً ، غير أننا عشنا على أمل أن نجد ذلك يوماً .

أذكر كيف أكسبني ظرف تافه اعتباراً خاصاً عند ابن عمي جونيندرا . لم أحصل على أي جائزة من المدرسة بتاتاً سوى مرة على حسن السلوك . بين ثلاثتنا ، كان ابن أخي ساتيا ، أفضلنا في تحصيله . حصل مرة على تقدير جيد في امتحان ما ، منح على أثره جائزة . قفزت من العربة عندما عدنا إلى البيت لأزف الخبر العظيم لمسامع عمي الذي كان في الحديقة «حصل ساتيا على جائزة» صحت وأنا أركض نحوه . شدّني إلى ركبته مبتسماً وسأل «وأنت ، هل حصلت على جائزة؟ !» .

«كلا» قلت ليس لي بل لساتيا» .

لمست غبطتي لنجاح ساتيا قلب عمي . التفت إلى أصدقائه وعلق : إن هذه صفة جديرة بالإكبار . أذكر الحيرة التي شعرت بها ، لأني لم أفكر بمشاعري من هذا المنظار . لم تُجد جائزة عدم حصولي على جائزة نفعاً . لا ضرر من تقديم الهدايا للأطفال ، لكن لا يتوجب أن يكافأوا . من غير السليم جعل الأطفال يعون ذلك .

كان ابن عمي جونيندرا يذهب بعد الغداء إلى مكاتب العقار في جزء من البيت ، حيث كان مكتب الكبار نوعاً من النادي الذي تمتزج فيه الضحكات والمحادثات بحرية مع أمور التجارة . كان ابن عمي يستلقي على أريكة ، فنغتنم فرصة لأتقدم منه رويداً رويداً .

كان يروي لي قصصاً من التاريخ الهندي . لازلت أذكر دهشتي عند سماع قطع كلايف لرقبته حين عاد إلى بلاده بعد أن أرسى الحكم البريطاني في الهند ! هنا يُصنع تاريخ حديث بيد وبالأخرى يخفى فصل مأساوي بعيداً في ظلمات القلب الإنساني . كيف يمكن أن يوجد مثل هذا النجاح الباهر في الظاهر وذاك الفشل اليائس في الداخل؟ أثقل ذلك فكري طوال اليوم .

أحياناً لم أكن أسمح لابن العم جونيندرا أن يبقى في ريبة لما في جيبي من المحتويات . بأقل بادرة تشجيع أخرج دفتري دون خجل لست بحاجة للإقرار أن ابن عمي ليس ناقداً صارماً . في الواقع يمكن للآراء التي عبر عنها أن تكون دعاية عظيمة . مع ذلك حين تصبح صبيانيتي

جلية الوضوح ، لم يكن ليكتم «ها ،ها» نابعة من القلب .

في أحد الأيام ، كانت قصيدة عن «الهند الأم» وحيث أن القافية الوحيدة التي كان بميسوري التفكير فيها تعني «عربة» لذا توجب عليَّ أن أجرَّ عربة رغم عدم وجود أثر لطريق يمكن للعربة الوصول عبره بمعقولية . لم تُصْغِ القافية لأي أعذار لا داعٍ لها . قوبلت تلك العربة بنوبة من الضحك من قبل ابن عمي جونيندرا ، وأعادها من نفس الطريق المستحيلة التي جاءت منها ، ولم يسمع بها بعد ذلك .

في تلك الغضون كان أخي الأكبر منهمكاً في تحفته «رحلة الحلم» . مقعده من الوسائد في الشرفة الجنوبية وأمامه منضدة منخفضة . كان ابن العم جونيندرا يأتي ويجلس هناك كل صباح لبعض الوقت . ساعدت مقدرته العظيمة على المرح الشعر على التفتح مثل نسائم الربيع . كان أخي الكبير يكتب ويقرأ ماكتبه بصوت مرتفع بالتعاقب ، وتهز ضحكته الصاخبة على بنات أفكاره الشرفة . كتب كمية أكبر بكثير مما استعمله من عمله المنتهي . كان إلهامه في منتهى الخصوبة وتنتشر في كل أرجاء البيت مثل الزهرات الصغيرة التي توسد أقدام بساتين المانجو في الربيع ، الصفحات المرفوضة من «رحلة الحلم» ،لو أن شخصاً حفظها لملأت سلة بالبراعم التي تزين أدب اليوم .

باستراق السمع من خلف الأبواب ، وسرقة النظرات حول الزوايا ، كنا نحصل على حصتنا الكاملة من هذا الاحتفال . كان أخي الأكبر في عز قوته ومن قلمه تجيش موجة إثر أخرى غير متعبة ، سيل عارم

من الأحلام الشعرية والقوافي والتعابير ، تملأ وتطفو على ضفافه أنشودة النصر والحمد والتسبيح المنعمة بالحيوية . هل حقاً فهمنا «رحلة الحلم»؟ لكن هل نحن بحاجة لفهمها تماماً حتى نستمتع بها؟ ربما لا نبلغ كنوز أعماق المحيطات . وما الذي سنفعله بها إن بلغناها؟ غير أننا نجد متعة بالغة في الأمواج المتكسرة على الشاطئ ، بأي غبطة يسري دم الحياة في علوه وانخفاضه في كل العروق والشرايين ! !

كلما أمعن التفكير في تلك الحقبة أكثر ، كلما أدرك أننا لم نعد نملك الشيء الذي يسمى «المجلس» . شاهدنا يوم كنا صبية موت شعاع حميمية الاختلاط الاجتماعي الذي ميز الجيل الأخير . كانت روابط الجيرة آنئذ في غاية التلاحم لحد جعل المجلس ضرورة والذين بإمكانهم المساهمة فيه مطلوبين جداً . في أيامنا يتزاور الناس للعمل أو كواجب اجتماعي ، وليس للاجتماع كما في المجلس . لا يملكون الوقت ولا العلاقات الحميمة ! كنا نرى من يأتي ويغدو ؛ كم كانت الحجر والشرفات مرحة بهمهمات الأحاديث ونتف الضحكات ! لقد اختفت قدرة أسلافنا على جعل أنفسهم قلب الجماعات والتجمعات ، وبدء وحفظ الشائعات المسلية الحية . لايزال الرجال يأتون ويذهبون ، لكن هذه الغرف والشرفات تبدو فارغة مهجورة . في تلك الأيام كان كل شيء ، من الأثاث إلى الاحتفالات ، مصمماً ليمتع الكثيرين ؛ ومهما كانت الأبهة أو العظمة ،إلا إنها ليست غطرسة . منذ ذلك الحين أصبح كل شيء أعظم ، غير أن المضيفين صاروا بلا مشاعر ، وفقدوا فن

الدعوة غير المميزة . لم يعد فقير الملبس أو حتى حافي القدمين يملك الحق في الظهور دون إذن من وجوههم المبتسمة وعلى حسابها فقط . للذين ندعوهم اليوم إلى بيوتنا مجتمعهم الخاص وأسلوب ضيافتهم المميز . مأزقنا ، كما أراه ، أننا فقدنا ماكان بحوزتنا ، ونفتقر إلى الوسائل لبناء جديد وفق التقاليد الأوروبية ، وكانت نتيجة ذلك أن غدت حياتنا المنزلية عديمة الفرح .

لا نزال نتقابل للعمل أو من أجل السياسة ، لكن ليس بتاتاً من أجل متعة اللقاء ، ودون غاية سوى الرفقة الجيدة . هذا اختفى تماماً . باستطاعتي تصور بضعة أشياء أكثر بشاعة من الشح الاجتماعي . حين أنظر إلى الخلف وأستعيد رؤية هؤلاء الذين كانت رنين ضحكاتهم النابعة من قلوبهم مباشرة تخفف عبء أحمال هموم دنيانا ، يبدو أنهم مثل زوار من أراض أخرى .

19

رفاق الأدب

توفر لي يوم كنت صبياً صديقٌ لا تثمن معونته الأدبية بثمن . كان شودهوري زميل أخي الخامس في المدرسة وحاصلاً على ماجستير في الأدب الإنجليزي الذي لا يضارع حبه له عظمة سوى جدارته به . من جهة أخرى كان عشقه للكتّاب البنغالين القدماء وشعراء الفيشافنا مشابهاً . كان على معرفة بمئات الأغاني البنغالية لكتاب مجهولين ، يشدوها بصوت جهوري دون اعتبار للحنٍ أو عاقبة أو استهجان سامعيه الجلي . ولم يفلح شيء في منعه من قياس وقت موسيقاه بصخب بحركات يديه ، طارقاً أقرب منضدة أو كتاب بأنامله الرشيقة في إيقاع قوي ليساعد في بعث الحياة والحيوية في مشاهديه .

كان يتحلى أيضاً بمقدرة جامحة لبعث المرح في الجميع قاطبة بلا استثناء ، ومتحفزاً لاستيعاب كل طيبة كما هو سخي في التغني بإطراء فضائلها . كانت له موهبة استثنائية كملحن للأغاني والألحان السريعة غير الرديئة ، لم تبعث فيه كبرياء شخصياً . لم يأبه بمستقبل أكوام الورق المنتشر الذي خط عليها قلمه بعجلة . كان لامبالياً لقدراته بنفس

القدر الذي كانت فيه قدراته خصيبة مثمرة .

أثارت إحدى قطعه الشعرية الطويلة إعجاباً كبيراً حين ظهرت في بانجادارشان . سمعت أغانيه على شفاه الكثيرين الذين لم يعرفوا شيئاً عن كاتبها .

أيقظت القدرة الاستثنائية لأكشاي بابو القائلة إن المتعة الأصلية في الأدب أندر من المعرفة المكتسبة من الكتب ، عندي تقديري للأدب .

كان متسامحاً متحرراً في صداقته كما هو في النقد الأدبي . بين الغرباء كان مثل سمكة خارج الماء لكن بين الأصدقاء لم يكترث لتباين الأعمار والمعرفة ، معنا نحن الصبية كان صبياً . حين يستأذن من الكبار لترك المجلس في آخر المساء ، كنت أمسك به من تلابيبه وأشده إلى حجرة دراستنا حيث يجلس خلف طاولة الدراسة بكرم عبقريته الوافر ليملأ تجمعنا الصغير بالحياة . كثيراً ما استمعت إلى خطبه الجذلة عن بعض القصائد الإنجليزية وجذبه إلى نقاش تقويمي واستفسار نقدي أو خلاف حاد ساخن ، أو أقرأ له بعضاً من كتاباتي التي يكافئني عليها بمديح سخي .

كان أخي الخامس جيوتيرنيدار أحد المساهمين الرئيسيين في إعدادي الأدبي والعاطفي . كان يهوى إثارة الحماس في الآخرين كونه متحمساً بذاته . لم يسمح لاختلاف الأعمار أن يكون عقبة بيننا . وما كان لأحد أن يجرؤ على منحي نعمة الحرية العظيمة التي وفرها لي والتي سببت له النقد من الكثيرين . مكنتني رفقته من هز أركان حساسيتي

الانطوائية . كان ذلك ضرورياً لروحي بعد قمعها الصارم ، مثل أهمية الرياح الموسمية بعد صيف ملتهب .

لو أطبقت هذه القيود فكها حولي لغدوت مقعداً مدى الحياة . لا يكل من في السلطة عن قولهم إن إمكانيات مساويء الحرية تبرر جمحها . غير أنهم لا يعلمون أنه دون هذه المخاطرة لا تكون الحرية حقاً حرة . السبيل الوحيد لتعلم كيفية استعمال شيء بشكل صحيح هي في إساءة استعماله . وفق رأيي على الأقل ، أستطيع القول بصدق إن المصائب الصغيرة التي نتجت عن ممارستي لحريتي قادت دائماً إلى سبل شفائها . لم أنجح بتاتاً في الحصول على أي شيء حاول الآخرون إجباري على تشربه قسراً ، جسدياً كان ذلك أم ذهنياً ، بشدّ أذني . لم يثمر ذلك إلا الأسى ، باستثناء الوقت الذي أترك فيه حراً .

تركني أخي جوتيريندرا طليقاً في حقول المعرفة مهما كانت المحصلة لأقدم الزهور أو الأشواك كما تملي قدراتي . جعلتني هذه التجربة لا أخشى الشر نفسه بقدر المحاولات الإستبدادية لخلق الصلاح . ينتابني رعب مبرر من الشرطة التأديبية ، سياسية كانت أم أخلاقية . دولة الرق التي يحثون عليها هي أسوأ نوع سرطان تتعرض له الإنسانية .

كان أخي أحياناً يقضي الأيام مستغرقاً في تأليف ألحان جديدة على البيانو ودفق الأنغام يسيل من أنامله ، في حين أجلس وزكشاي بابو على جانبيه نستوحي من اللحن ما يناسبه من الكلمات لنساعد على حفظها في ذاكرتنا ، بهذه الطريقة خدمت تدريبي في تأليف الأغاني .

كنا نولي الموسيقى الرعاية في عائلتنا منذ نعومة أظافرنا . ساعد ذلك في تشربي للموسيقى دون جهد . بيد أن لذلك نقطة نقص وهي عدم حصولي على السيطرة التقنية التي يوفرها التعليم خطوة خطوة . وعليه لم أحصل بتاتاً على ما يمكن أن يسمى بالبراعة الموسيقية .

بعد عودتي من الهملايا ، أصبحت أتمتع بمزيد من الحرية . انتهى حكم الخدم ، حللت بتأن قيود مدرستي ولم أعر مدرسي في البيت اهتماماً كبيراً . بعد أن درسنا «مولد إله الحب» وكتاباً أو كتابين خارج المنهج ، ذهب جيان بابو ليعمل في مهنة قانونية . ثم جاء براجابابو . طلب مني في اليوم الأول ترجمة «قس ويكفيلا» . لم أكره الكتاب ، لكن حين شجعه ذلك على وضع ترتيبات مفصلة لتعليمي ، أبعدني عن طريقه .

كما أسلفت ، يئس إخوتي الكبار مني وخاب رجاؤهم بي ، ولم نكترث ، لا هم ولا أنا ، بمستقبلي . لذا شعرت بالحرية لتكريس نفسي لملء دفتري بكتابات ليست أفضل مما هو متوقع . لم يكن في ذهني سوى الأوهام البخارية الحارة ، والبخار المليء بالفقاعات يزبد ويحوم حول دوامة من الوهم الخامل دون غاية أو معنى . لم تتطور أشكال ، بل حركة مثارة هائجة فقط ، تكوّر فقاعات يتبعها انفجار يحولها إلى زبد . لم يكن الجوهر القليل المتواجد فيها لي ، بل استعارات من الشعراء الآخرين . ما كان لي هو التوتر المضطرب لعدم الارتياح . حين تولد الحركة ، مع توجب خلق توازن للقوى ، تحل الفوضى العارمة لا

محالة .

كانت زوجة أخي عاشقة للأدب . لم تقرأ لقتل الوقت مثل الآخرين بل لتشبع ملكات عقلها . كنا شريكين في مشروع أدبي ، إعجابنا بكتاب أخي «رحلة الحلم» ، أنا على وجه الخصوص بسبب نشأتي في جو خلقه ولكون جمالياته مجدولة بكل خيوط قلبي . من سوء الطالع ، بقي الكتاب فوق مقدرتي على تقليده ، لذا لم تخطر الفكرة لي .

يمكن تشبيه «رحلة الحلم» بقصر فخم من المجازات مكون من عدد لا يحصى من القاعات والغرف والممرات والزوايا والنوافذ المليئة بالتماثيل والصور الرائعة التصميم والحرفية ؛ وحول الطابق الأرضي توجد الحدائق والبساتين المعرشة والجبال والأركان المظللة الوافرة . ولا تعج بالأفكار والخيالات الشاعرية فقط ، بل بغنى وتنوع اللغة والتعابير الرائعة أيضاً . هذه القوة الخلاقة التي تهب الوجود بنياناً عظيماً كامل التفاصيل الفنية ، ليست شيئاً صغيراً . لعل هذا يفسر سبب عدم تفكيري بالتقليد .

في ذلك الحين ، كانت سلسلة أغاني بهاري لال شاكرافارتي المدعوة «ساراوا مانجل» تظهر في أريادارشان . افتتنت زوجة أخي بطلاوة هذه الأغاني وحفظت معظمها عن ظهر قلب . كثيراً ما كانت تدعو الشاعر إلى منزلنا وتطرز وسادة بيديها ليجلس عليها . وفر هذا لي الفرصة لأتعرف عليه كصديق كنَّ لي عواطف جمة ، وصرت أزور بيته

صباحاً ومساءً . كان قلبه كبيراً كجسده ، وتحيط به هالة من الخيال كجسد شاعر وهمي ، الذي لعله كان تجسيده الحقيقي . كان يفيض بالغبطة الفنية التي تشربت منها قليلاً كلما كنت معه . كثيراً ما جئت إليه في غرفته الصغيرة في الطابق الثالث وهو ممدد في قيظ الظهيرة على الأرضية الأسمنتية المصقولة الباردة ، يكتب أشعاره ، ورغم كوني مجرد صبي ، إلا أن ترحيبه كان دائماً صادقاً نابعاً من القلب ، ولم أشعر بأي عدم لياقة في زيارته . ثم يقرأ لي ، وهو سابح في إلهامه غافل عن كل ما حوله ، قصائده أو يشدو بأغانيه . لم يتحلَّ بموهبة صوتية عظيمة في الغناء ، إلا أن تآلف الأنغام يؤهل المستمع لتكوين فكرة جيدة عن اللحن ، وحين يرفع صوته الغني العميق وعيناه مقفلتان ، تعوض تعابيره ما افتقر إليه أداؤه . يخيل لي أني لا أزال أسمع بعضاً من أغانيه وهو يغنيها . كنت أوفق أحياناً بين كلماته والموسيقى وأغنيها له .

كان شديد الإعجاب بكل من فامليكي وكاليداس . أذكر كيف بعد إلقاء وصف الهملايا من كاليداس ، صاح بكل ما أوتي من صوت «تعاقب صوت حرف(آ) الطويل هنا ليس مصادفة . لقد كرر الشاعر هذا الصوت متعمداً من ديفاتاتما إلى ناجاد هيراجا كأداة مساعدة لإظهار الامتداد العظيم للهملايا» .

كان أقصى طموحي حين ذاك أن أصبح شاعراً مثل بيهاري بابو . وقد نجحت في إقناع نفسي بأني فعلاً أكتب مثله ، لكن زوجة أخي المفتونة

والمتحمسة له ، وقفت في الطريق ، كانت تذكرني بمثل سنسكريتي يقول الطموح التافه بالشهرة الشعرية يرحل ميتاً في الملاحظات الساخرة . من الممكن إنها كانت تعلم إذا ما سمح لغروري مرة أن يهيمن ، سيكون من الصعب لاحقاً السيطرة عليه . لذا لم تحظ لا ملكاتي الشاعرية ولا قوة غنائي بأي إطراء منها ؛ على العكس تماماً ، لم تدع فرصة تفوتها لمدح غناء شخص آخر على حسابي لحد اقتنعت فيه تدريجياً بأن هناك خللاً في صوتي ، هاجمتني أيضاً هواجس الريبة في قواي الشعرية ، لكن حيث أنه حقل النشاط الوحيد الذي بقي لي فيه أمل للاحتفاظ باحترامي الذاتي ، لم أسمح لحكم شخص آخر أن يحرمني من كل الآمال . علاوة على ذلك ، كان الحافز الداخلي عندي ملحّاً جداً لحد جعل وأد مغامرتي الشعرية أمراً مطلق الاستحالة .

20

النشر

حتى ذلك الحين ، كانت كتاباتي تقتصر على المحيط العائلي . ثم ظهرت الدورية الشهرية «جيانانكور» -بذور المعرفة- التي طابقت اسمها وتكفلت بجنين شاعر كأحد كتابها ، وشرعت في نشر كل هذياني دون تمييز . حتى يومنا هذا ، لا زالت الخشية قابعة في ركن من فكري ، من أن يبدأ كشاف أدبي متحمس يوم الحساب بحثاً في أشد أجنحة حريم الأدب المفقود إيغالاً ، متغافلاً ادعاءات الخصوصيات الشخصية ، ويعرض هذه القصائد على عيون الجمهور عديمة الرحمة .

رأت أول كتاباتي النثرية النور على صفحات «جيانانكور» ، أيضاً كان ذلك مقالاً نقدياً يتضمن قليلاً من التاريخ .

نشر كتاب شعري يحمل اسم «عبقرية بهو بانموهيني» . أحسن اكشاي بابو في «سادهاراني» ويهوديب بابو في «أديوكيشن جازيت» الثناء على الشاعر الجديد ، وأسرفوا في التعبير عن عواطفهم . أتاني صديق أكبر سناً مني ، بدأت صداقته من ذلك اليوم ، وعرض عليّ رسائل تلقاها موقعة باسم بهوبانموهيني . كان من هؤلاء المأسورين

بالكتب ويبعث من حين لآخر بالعطايا السخية من الكتب والملابس إلى عنوان المؤلفة المشهورة .

كانت بعض هذه القصائد لا ترتقي إلى المستوى المتوقع فكراً ولغة ، لحد لم أتحمل معه الظن أنها مكتوبة من قبل امرأة . جعلت الرسائل الاعتقاد بأن الكاتبة أنثى أقل احتمالاً ، ولم يزعزع إخلاص صديقي شكوكي ، لكنه رغم ذلك استمر في تأليه معبودته .

شرعت في نقد أعمال هذه الكاتبة ، تاركاً نفسي على سجيتها لتبدي رأيها المكتسب من الكتب حول المميزات الخاصة للقصائد القصيرة والمغناة ، مستفيداً من أن المادة المطبوعة لا تسبب الإحراج ولا تخون إحرازات الكاتب الحقيقية . بانفعال شديد هددني صديقي بأن حامل شهادة بكالوريوس سيكتب رداً . شهادة بكالوريوس ! صعقت مبكماً ، مثلما يوم كنت صغيراً وصاح ابن أخي ساتيا طالباً الشرطي . كان بإمكاني رؤية عماد حجتي المظفرة القائم على طبقات من التفوق الجيد ، يتقوض أمام ناظري تحت هجمة الاقتباسات السلطوية عديمة الرحمة ، ويسد الباب تماماً أمامي بحيث لا يرى جمهور القراء وجهي مرة أخري . واحسرتاه على نقدي ، تحت أي نجم شرير ولد ! ! قضيت أياماً في ترقب رهيب ، لكن مثل شرطي ساتيا ، لم يظهر حامل شهادة البكالوريوس .

21

بهانو سينجه

كما أسلفت كنت طالباً مولعاً بسلسلة قصائد فيشنافا القديمة التي جمعها ونشرها بابوس اكشاي ساركار وسارادا ميتر . وجدت لغتهم الممزوجة جيداً بالمثيلي صعبة الفهم ، لذا تكبدت المصاعب للوصول إلى معانيهم . كانت مشاعري حيالهم مثل الفضول الملح الذي أحسست به حيال برعم غير نابت في بذرة أو الأمور الغامضة الكائنة تحت أديم الأرض ، آزر حماسي الأمل في اكتشاف بعض الجواهر الشعرية المجهولة ، وأنا أغوص أعمق وأعمق في الظلمة غير المكتشفة في بيت الكنز هذا .

أخبرني أكشاي شودهوري وأنا منهمك في هذا حكاية الشاعر الإنجليزي الصبي شاتيوتون . لا أدري كيف كان شعره ، ولا أحسب أكشاي بابو يدري ، لو علمنا لفقدت القصة سحرها ، لكن العنصر الميلودرامي فيها ألهب مخيلتي : فكرة أن شاتيرتون خدع كثيرين بتقليده لبعض الشعراء القدامى والذي تبعه بانتحاره المأساوي يافعاً . بالتغاضي عن انتحاره شمرت عن ساعدي لأضاهي شاتيرون

الصغير .

تكدست الغيوم بثقل في شهر يوم ما . في أعماق هذه القيلولة المظللة . انبطحت على سريري في حجرتي الداخلية وخططت على لوح Gahana Kusuma Kunja Majhe

كنت في غاية السرور لتقليدي قصيدة ميثيلية ، ولم أضيع فرصة في قراءتها على أول شخص أقابله . لم تكن هناك أدنى خطورة من عدم فهمه كلمة منها ؛ وعليه لم يملك إلا أن يهز رأسه بوقار ويقول «جيد ، جيدجداً ، بالفعل» . في وقت لاحق ، عرضت القصائد على صديق قائلاً «مخطوطة قديمة بالية اكتشفت خلال التنقيب في مكتبة أدي براهمو ساماج . نسخت منها بعضاً من قصائد شاعر فاسنافي يدعى بهانو سينجه ، ثم اتبعت ذلك بقراءة بعض من شعري التقليدي له . تأثر بعمق وهتف بجذل «هذه لايمكن أن تكتب من قبل فيدياباتي أو شانديداس . يجب أن آخذ هذه المخطوطة حتى ينشرها أكشاي بابو» .

بعد ذلك عرضت عليه دفتري وأثبت له بحجة مقنعة أن القصائد لم تكتب من قبل لا فيدياباتي ولا شانديداس ، لأن الكاتب هو أنا . بدت على وجه صديقي أمارات الخزي والخيبة وهو يتمتم«أجل ، أجل ، إنها جيدة» .

عندما نشرت قصائد بهانو سنجيه لاحقاً في بهاراتي ، كان الدكتور نيشيكاناتا شاتيرجي في ألمانيا حيث كتب أطروحة في الأدب المقارن بين الشعر الغنائي في بلادنا والشعر الغنائي الأوروبي ،أعطى فيها بهانو

سنجيه مكانة مشرفة كواحد من الشعراء القدامى ، الأمر الذي لا يطمح إليه أي شاعر معاصر . نال نيشيكاناتا شاتيوجي على هذا الموضوع شهادة الدكتوراه .

أياً كان بهانو سنجيه ، لو وقعت كتاباته بين يدي ، أقسم بأني لن أخدع ، يمكن أن تفي اللغة بالغرض المطلوب ، لأن الشعراء القدامى كتبوا دائماً بلغة متكلفة عولجت بأشكال متباينة من الشعراء المختلفين وليس بلغتهم الأم ، لكن لم يكن هناك أي تكلف في أحاسيسهم وعواطفهم ، أي محاولة لاختبار قصائد بهانو سنجيه برنينها ، قد تكشف قلة قيمتها ، لأنها تفتقر إلى لحن واتساق أصوات أنغام مزاميرنا القديمة ، وتشتمل على الرنين الرخيص للأورغن اليدوي الإنجليزي الحديث فقط .

22

الوطنية

إذا ما نظر إليها من الخارج ، يبدو أن عائلتنا تقبلت كثيراً من العادات الأجنبية ، غير أنه في أغوار قلبها اضطرم كبرياء وطني لم يخبُ لهيبه أبداً . الاعتبار الحقيقي الصادق الذي حمله أبي لبلاده لم يهجره أبداً طوال حياته وكل تقلباتها ، وتجسد في سلالته شعوراً وطنياً قوياً . لا يصدق هذا بأي حال في الزمن الذي أكتب فيه هذه السطور ، آنئذ حافظ رجالنا المتعلمون على لغة وفكر بلادهم الأم . كان إخوتي الكبار يرعون دائماً الأدب البنغالي بعنايتهم ، أرسل قريب بالمصاهرة مرة رسالة إلى أبي بالإنجليزية ، فأعيدت له رأساً .

أنشأ مهرجان «هندو ميلا» السنوي بمساعدة أسرتنا . عين بابو نابا جوبال ميترا مديراً له . لعلها المرة الأولى التي يكرس فيها مهرجان لكل الهند كوطن لنا . لحّن أخي الثاني النشيد الوطني الشعبي « بهاراتير جايا» لهذه المناسبة . كان من مظاهر الاحتفال ، غناء الأغاني التي تمجد أرض الوطن ، وإلقاء القصائد في حبه . وإقامة معرض للفنون المحلية والأعمال اليدوية وتشجيع المواهب والمهارات الوطنية .

كتبت بمناسبة دربار (١) «اللورد كوزون في دلهي مقالة ، وفي حفلة اللورد ليتون قصيدة . صحيح أنَّ الحكومة الإنجليزية حين ذاك كانت تخشى الروس ، لكن ليس قلم شاعر في الخامسة عشرة ، لذا ، ورغم أن قصيدتي لم تفتقر إلى الانفعال الملائم لعمري ، إلا أن دلالات الرعب لم تظهر في صفوف السلطات من القائد الأعلى للقوات المسلحة إلى مفوض الشرطة . ولم تشر أي رسالة إلى صحيفة «التايمز» بظهور فتور في الشعور بين المسؤولين للتعامل مع هذه الصفاقة ، واسترسلت بنبرات الأسى أكثر من الغضب في التنبؤ بسقوط الإمبراطورية البريطانية . ألقيت القصيدة تحت شجرة في احتفال «هندومالا» ، وكان من بين المستمعين الشاعر نابن سين ، الذي ذكرني بذلك بعد أن كبرت .

كان أخي الخامس ، جيوتيرندرا ، مسؤولاً عن جمعية سياسية يرأسها راج نارين لوس العجوز ، تعقد جلساتها في بناية آيلة للسقوط تقع في زقاق كلكتي منعزل ومظلم . كان الغموض يحيط بمحضر الجلسات ، الأمر الوحيد الداعي إلى الخشية ، غير ذلك لم يكن في تداولاتنا أو أفعالنا ما يدعو الحكومة أو الشعب للفزع ، لم تكن عائلتنا تعرف أين كنا نمضي أوقات بعد الظهر . كانت البوابة الخارجية مغلقة وغرفة الاجتماع مظلمة وكلمة السر فيداوي(٢) مقدسة وحديثنا همساً . كان

---

(١) دربار : حفلة رسمية يقدم فيها الرعايا عهد الولاء لأمير هندي أو العاهل البريطاني .(المترجم)

(٢) Vedic mantra : ابتهال هندوسي أما على شكل توسل أو تكرار كلمة (مقدسة(المترجم) .

ذلك كافيا لإثارتنا ولم نطمح لأكثر من هذا . كنت عضواً رغم أني مجرد صبي ، لقد أحطنا أنفسنا بجو من الهذر وبدا أننا نطفو دائماً على أوهام التأملات . لم نبد خجلاً ولا حياء ولا خشية . كان هدفنا الرئيسي أن نستدفيء في حرارة حماستنا .

قد يكون للبطولة عوائقها ، غير أنها استحوذت على البشر بعمق دائماً . يحفظ أدب كل أمة هذا التبجيل حياً ، ولا يقدر أي إنسان أينما وجد نفسه الهرب من تأثير هذا التقليد . كنا في جمعيتنا راضين سعداء بالاستجابة لهذا التقليد بكل ما في وسعنا ، وذلك بترك مخيلتنا تسرح على سجيتها واستعمال اللغة الطنانة والغناء بحماس متقد .

لا ريب أن إقفال كل المخارج أمام حافز بمثل هذا العمق في الإنسان ومبجل منه ، يخلق ظرفاً غير طبيعي يبشر بإحباط الفاعلية . لا يكفي ترك سبل الوظيفة الكهنية في أي خطة شاملة للحكومة الاستبدادية مفتوحة فقط . إذا لم يترك سبيل للمغامرة ، سيتوق الناس إليها ، ويبحثون عن المسالك السرية بطرق ملتوية وأهداف لا تخطر على بال . أعتقد جازماً لو أن الشك خامر الحكومة وقست علينا لتحولت النشاطات الكوميدية لأعضاء جمعيتنا الشباب إلى مأساة مروعة . انتهت اللعبة ومع ذلك لم تصب آجرّة في حصن وليم ونحن نبتسم للذكرى .

انهمك أخي جيوتيرندار في تصميم لباس لكل الهند ، وقدم عدة تصورات للجمعية . اعتبر مئزر الدوطي غير مناسب للعمل ، والبنطال

كان أجنبياً ، لذا توصل إلى تسوية تنقص من قدر الدوطي ولا ترفع من قدر البنطال ، أي بعبارة أخرى ، زين البنطال بطية دوطي إضافية من الأمام والخلف ، والأنكى من ذلك جمع عمامة التوربان وقبعة التوبية الهندية التي لم يبلغ الطيش بأشد أعضائنا حماسة أن يدعوها زينة ومفخرة . لم يجرؤ شخص بشجاعة عادية على ارتدائها ، بيد أن أخي لم يحجم عن ارتداء اللباس كاملاً في وضح النهار ، ومر بعد ظهر يوم في البيت إلى العربة المنتظرة في الخارج ، لامبالياً بنظرات الأقارب والأصدقاء والبواب وسائق العربة . ربما كان هناك العديد من الهنود الشجعان المستعدين لتقديم أرواحهم من أجل بلادهم ، غير أني على يقين أن قلة ، ولو لصالح الأمة ، يمكن أن تسير في الشوارع مرتدية مثل هذا الزي الجامع لكل الهند .

كان أخي يذهب للقنص كل يوم أحد . لم نعرف كثيرين من المشاركين من دون دعوة . كان هناك نجار وحداد وآخرون من كل طبقات المجتمع . الشيء الوحيد الذي كنا نفتقر إليه هو سفك الدماء . على الأقل لا يسعني تذكر حدوثه . كانت حسنات الصيد كثيرة ومرضية لحد جعل غياب الطرائد القتيلة أو الجريمة شيئاً تافهاً . وحيث أننا كنا نغادر من الصباح الباكر ، كانت زوجة أخي تزودنا بالزاد الوفير من اللوشيس والأطباق المرافقة المناسبة حتى لا نعود جائعين ولأن حقائبنا لم تعتمد على حصيلة الصيد .

لم تفتقر منطقة مانيكتولا المجاورة إلى حدائق الفيلات التي كنا نذهب

إليها لنستريح على حافة حوض استحمام ونلتهم اللوشيس بشهية ولا نبقي إلا الأواني والأوعية . كان براجا بابو أكثر المتحمسين لرحلات القنص هذه التي لا تسفك فيها الدماء . كان يشغل منصب مدير معهد الميتروبولتان ومدرسنا الخاص أيضاً . جاءته مرة فكرة بمبادرة حارس حديقة انتهكنا حرمتها بقوله «مرحباً ، هل قدم العم هنا مؤخراً؟» لم يدخر الحارس وقتاً للترحيب بنا باحترام قبل أن يجيب «كلا ، ياسيدي ، لم يحضر السيد هنا مؤخراً» . «حسناً ، اقطف لنا بعض جوز الهند الأخضر عن الشجر .» شربنا شراباً جيداً بعد اللوشيس ذلك اليوم .

كان يصحبنا في القنص إقطاعي جابي ضرائب غير ذي شأن ، يملك فيلا على ضفة النهر . في أحد الأيام خرجنا للنزهة معه دون اعتبار للقوانين الصارمة . بعد الظهر انفجرت عاصفة عاتية . وقفنا على الدرجات المؤدية إلى الماء وانطلقنا صارخين بالغناء . ليس بوسعي الادعاء أن أحرف السلم الموسيقي السبعة كانت مميزة في غناء راج نارين بابو ، لكنه بالتأكيد غنى بكل ما عنده من حيوية مفعمة ، وكما في الأعمال السنسكريتية القديمة حيث يغرق النص ضائعاً في الألحان ، كان نشاط أطرافه وتقاسيم وجهه يعوضان ضعف أداء صوته ، ورأسه يتأرجح من جهة إلى أخرى وهو يراوح الخطى واقفاً في مكانه والعاصفة تعبث في لحيته بفوضى عارمة . كان الوقت متأخراً حين توجهنا بعربة أجرة صوب البيت . انقشعت الغيوم ، تلألأت النجوم ،

أسدل الظلام الكثيف ستاره ، أطبق صمت الجو ، هجرت طرق القرية ، وامتلأت الأدغال على الجانبين باليراعات مثل كرنفال من شرر نثرته أطياف من المعربدين .

كان أحد أهداف جمعيتنا تشجيع تصنيع أعواد الثقاب والصناعات الصغيرة الأخرى . توجب على كل عضو المساهمة بعشر دخله لهذا الهدف . كان الثقاب مطلوباً ، لكن يصعب الحصول على الخشب اللازم لصناعته ورغم معرفة الجميع لعيدان كانجرا والشدة التي يفترض أن تستخدم بها الحزمة ببراعة من قبل ربة البيت سريعة الغضب ، فإنها تشعل الخلفيات قليلاً فقط لا فتيل المصباح . نجحنا بعد تجارب عدة في صنع علبة . لم تكن قيمتها محصورة في نار الوطنية التي كرست لها فقط . كان يمكن للمال الذي أنفق عليها أن يبقي موقد العائلة مشتعلاً لمدة سنة . العيب الآخر أن عيداننا لا تشتعل دون وجود نار في متناول اليد لمساعدتها على الاشتعال . لو أنها تشربت بعضاً من الروح الوطنية التي وضعت من أجلها فقط ، لسوّقت حتى في أيامنا هذه .

نما إلى علمنا أنّ طالباً شاباً يحاول صنع نول كهربائي . ذهبنا لرؤيته دون أدنى معرفة للحكم على فاعلية النول واستخدامه عملياً . إلا أن مقدرتنا على التصديق والأمل كانت كبيرة . دفعنا للطالب المسكين ما استدانه لدفع تكاليف آلته . في أحد الأيام ، جاء براجا بابو إلى بيتنا ومنشفة رقيقة رديئة الصنع معقودة حول رأسه « من صنع نولنا» صاح وهو يرفع يديه ويرقص رقصة الحرب . حتى في ذلك الوقت ، كان

شعر براجا بابو أشيباً !

أخيراً انضم إلى جمعيتنا من لهم خبرة بالحياة والناس ، وجعلونا نتذوق ثمرة المعرفة ، وبذلك وضعوا حداً لفردوسنا الصغير .

عندما تعرفت على راج نارين بابو أول مرة ، كنت أصغر من أن أقدر تعدد اهتماماته ومؤهلاته ، كان يجمع العديد من المتناقضات ورغم بياض شعره ولحيته كان شاباً مثل أكثرنا شباباً ، ووقاره الخارجي عباءة بياض حافظت على شبابه دائم النضارة ، وفشل حتى علمه الواسع من مضرته ، كان شفافاً صريحاً بكل ما في الكلمة من معنى . لم تعانِ ضحكته الصادرة من القلب حتى آخر حياته كبحاً لا من رزانة عمر أو سوء صحة أو حزن محلي أو استبطان عميق ، ولا من تنوع واختلاف دروب المعرفة . كانت كلها ملكه بوفرة .

كان طالباً مفضلاً عند ريتشاردسون ، نشأ وترعرع في جو تعليم إنجليزي ، غير أنه طرح جانباً كل المعوقات التي خلقتها طباعه المبكرة وكرس نفسه ووهجها بحب إلى الأدب البنغالي ، كان أكثر الرجال حلماً ، توهجت ناره الباطنية حتى أقصاها في وطنيته ، كما لو أنها تود حرق عوز بلاده وعيوبها حتى الرماد ، ذكرى هذا الرجل القديس ، المبتسم بطلاوة ، دائم الشباب الذي لا يعرف الكلل بسبب مرض أو مصاب جلل ، تستحق أن تبقى معززة مكرمة في ذهن مواطني بلاده .

23

بهاراتي

كانت الفترة التي أكتب عنها مرحلة إثارة وجد بالنسبة لي ، حيث قضيت كثيراً من الليالي ساهراً لا لسبب إلا لمجرد الرغبة والنزوة لفعل عكس ما هو بديهي . قد أقرأ وحيداً في ضوء حجرة الدراسة الواهن ، وساعة الكنيسة البعيدة تقرع كل ربع ساعة كما لو أن كل ساعة تمر معروضة في مزاد علني ؛ وبين حين وآخر يعبر حاملو الموتى شارع شيتور في طريقهم إلى محرقة نيمتولاه ، وهم يطلقون صرخات «هاريبول» المدوية . قد أتجول في ليالي الصيف المقمرة أحياناً كروح قلقة بين رقعات ضوء ظلال قدور وأحواض النبات الخشبية المنصبة من السطح على أرض الحديقة .

يخطيء من يظن هذا مجرد إضفاء مسحة شاعرية ، فالأرض رغم عمرها وثباتها ، لا تزال تدهشنا بين فينة وأخرى بهزة أرضية ، قبل أن تتحجر وتقسو قشرتها ، كانت بركانية هائجة وتقوم بأعمال طائشة . كذلك الحال مع شاب يانع ، طالما أنّ مكوناته لم تصل إلى شكلها النهائي فإنها عرضة للتمرد والهيجان .

في هذا الوقت قرر أخي جيوتيريندرا الشروع في نشر بهاراتي مع أخي الكبير كرئيس تحرير ليعطي حماسنا زاداً جديداً . كنت حين ذاك في السادسة عشرة ، إلا أنني لم أستثنَ من هيئة التحرير . قبل ذلك بقليل وبكل غطرسة وغرور الشباب كتبت نقداً حول «ميجهنادباد» . كما الحموضة من صفات المانجا الفجة ، فإن التعسفات كذلك من صفات النقد غير الناضج . حين لا تتوفر القوى الأخرى ، يبدو أن قوة الوخز تزداد حدة . وهكذا حاولت الحصول على الخلود بترك خدوشاتي على ملحمة خالدة . كانت هذه الصفاقة النقدية أول مساهماتي في بهاراتي .

نشرت في المجلد الأول أيضاً قصيدة طويلة تدعى « قصة الشاعر» كانت من نتاج ذلك العمر حيث لا يرى الكاتب شيئاً من العالم سوى الصورة المضخمة لذاته الضبابية . كان بطلها بطبيعة الحال شاعراً ، لكن ليس الكاتب كما كان في الواقع ، بل كما يجب أن يُرى وفق اعتقاده ، لا يرغب في أن يكون ما هو عليه ، بل يود أن يومىء العالم برأسه عجباً ويقول «أجل ، هذا شاعر حقاً ، وكما يجب أن يكون» تقدم القصة استعراضاً عظيماً للحب الشامل ، الموضوع الأثير للشعراء الناشئين ، الذي يبدو مهماً كسهولة الكلام حوله . قبل أن تشرق الحقيقة على عقل الانسان ، وتكون كلمات الآخرين مخزونه الوحيد ، تغدو البساطة والاقتصاد في التعبير غير ممكنين . عوض ذلك ، يصبح لا مفرَّ من عرض السخافة والمبالغة الغروتسية و السعي لتضخيم ما هو

كبير بالفعل .

حين تتورد وجنتاي خجلاً ، وأنا أقرأ هذه الدفقات من أيام صباي المبكر ، أخشى أن يتخلف في كتاباتي اللاحقة أيضاً ، وبشكل أقل وضوحاً نفس التشويه الناتـج عن توتر التأثير . كثيراً ما يطمس ارتفاع صوتي ما أود قوله . لا أشك أن الزمن سيكتشفني يوماً ما .

كان «كابيكاهيني» أول عمل يظهر لي في شكل كتاب . يوم ذهبت مع أخي الثاني إلى أحمد أباد ، فاجأني صديق متحمس بطبعه ونشره وإرسال نسخة منه لي . لم أتصور أن ذلك فكرة حسنة ، غير أن الشعور الذي بعثه بي في ذلك الحين لم يكن ساخطاً . لقي الصديق جزاءه ، ليس من الكاتب ، بل من الجمهور الذي يتحكم بعملية الشراء . سمعت أن وزن هذه الكتب الميت أثقل رفوف باعة الكتب وتفكير الناشر سيىء الطالع وقتاً طويلاً .

لا يمكن أن تكون الإسهامات التي قدمتها في ذلك العمل البهاراتي صالحة للنشر . ليس هناك من سبيل يضمن التوبة في النضوج أفضل من النشر المبكر في الصغر . لكن ما يعوض ذلك هو أن النزوة التي لا تقاوم لرؤية المرء كتاباته مطبوعة سرعان ما تستنزف نفسها . من هم قراؤك وماذا يقولون؟ ! أي أخطاء مطبعية بقيت دون تصليح؟ هذه وأمثالها من التساؤلات المقلقة تأخذ مجراها المألوف كأمراض الطفولة وتترك فراغاً للمرء لاحقاً ليعتني بأعماله الأدبية وهو بحالة ذهنية أكثر صحة .

ليس الأدب البنغالي من القدم بما يكفل له تطوير الكوابح الداخلية التي يمكن أن تسيطر على مريديه . على الكاتب البنغالي أن يستنبط قوى كابحة تنبع من ذاته خلال كسبه للتجربة . يستحيل عليه تجنب تقديم كمية كبيرة من الهراء لوقت طويل ، يستحوذ عليه .

في البدء طموحه في عمل العجائب بالموهبة المتواضعة المتوفرة له ، وتستحثه لأن يسمو بقدراته الطبيعية في كل خطوة ويعد ذلك مباشرة تأتي قيود الحقيقة والجمال . يبدو هذا جلياً في الأعمال المبكرة يستغرق الإنسان وقتاً طويلاً لأن يستعيد ذاته الطبيعية ويتعلم احترام قدراته .

ذلك يعني أنني تركت كثيراً من حماقات الشبان المخجلة تلوث صفحات بهاراتي ، ولا تخجلني عيوبها الأدبية فقط ، بل وقاحتها البغيضة وغلوها وتكلفها الطنان . من ناحية أخرى ، رأيت في كتابة تلك الفترة حماسة طاغية ليس بوسعي التغاضي عنها . إذا كان ارتكاب الخطأ ضرورياً لإذكاء لهيب النيران ، فإنها الآن اضمحلت إلى رماد تاركة العمل الجيد للنيران التي لم تشتعل عبثاً .

24

احمد اباد

يوم دخلت بهاراتي عامها الثاني ، اقترح أخي الثاني أن يأخذني إلى إنجلترا ، وافق أبي ودهشت لتحقق تلك الهبة الإلهية التي لم أطلبها بعد .

صاحبت أخي كخطوة أولى إلى أحمد أباد حيث عين قاضياً . كانت زوجة أخي وأولادها حين ذلك في إنجلترا ، لذا كان البيت خالياً .

كان بيت القاضي الذي يعرف بشاهيباه قصراً لقدماء البادشاه . بمحاذاة الحائط الذي يدعم سطحية عريضة ، كان جدول صيفي صغير لنهر سابارماتي ينساب وعلى حافته طبقة رملية فسيحة . حين يذهب أخي إلى المحكمة ، كنت أبقى وحيداً في القصر الواسع مع سجع الحمام الذي يكسر هدوء منتصف النهار . كنت دائم التجوال في الغرف الفارغة بفعل فضول لايمكن تعليله .

وضع أخي كتبه في الفراغات الموجودة في جدران حجرة واسعة . كان أحدها نسخة بهية لأعمال تينيسون مطبوعة بحروف كبيرة وصور متعددة . كان الكتاب ، بالنسبة لي ، صامتاً كالقصر ، أجول في

صحائفه الملونة كما أجول في القصر . رغم عدم فهمي لشيء من النص ، إلا أنه خاطبني بسجع عاجز عن الإفصاح لا بالكلمات . وجدت أيضاً في مكتبة أخي كتاباً لمجموعة شعر سنسكريتية من تحقيق الدكتور هابيرلن ، مطبوع في مطبعة سيرامبور القديمة . كان هذا أيضاً فوق مستوى إدراكي ، لكن أخذتني الكلمات السنسكريتية الطنانة وسير الوزن في جولة بين قصائد «أساروشاتاكا» وإيقاعها القديم .

كانت الغرفة العليا في برج القصر صومعتي ، بلا رفيق سوى عش دبابير ، هناك في الظلمة الداكنة كنت أنام وحيداً ، أحياناً يخرج زنبور أو اثنان من العش ويحطان على فراشي ، فإذا حدث أن انقلبت على أحدها يكون اللقاء غير سار للزنبور وكئيباً لي .

كانت إحدى نزواتي أن أسير جيئة وذهاباً على السطحية الواسعة المطلة على النهر تحت ضوء القمر . كتبت أول ألحان أغنياتي وأنا أقوم بذلك . الأغنية الموجهة إلى الوردة التي لم تمس ، كانت أحدها ولاتزال تجد موضعاً في أعمالي المنشورة .

شرعت في قراءة الكتب الإنجليزية بمساعدة القاموس بعد أن أدركت عدم كمال معرفتي باللغة الإنجليزية . كانت عادتي منذ نعومة أظافري أن لا أدع أي نقص في الفهم الكامل يعترض سير مطالعتي ، لكن حتى أشعر بالرضا على البنية كانت مخيلتي تشاد على النتف التي أفهمها . لا زلت حتى اليوم أقطف التأثيرات الجيدة والسيئة لهذه العادة .

25

إنجلترا

بعد ستة أشهر في أحمد أباد ، انطلقنا في رحلتنا إلى انجلترا . رحت أكتب في لحظة مشؤومة رسائل حول رحلتي إلى أقاربي وبهاراتي ، ليس بوسعي الآن تذكرها ، لم تكن سوى ثمرة تبجحات شاب يافع . في ذلك العمر يرفض العقل الاعتراف بأن أعظم مسببات الكبرياء تقبع في قدراته على الفهم والقبول والاحترام وأن التواضع أنجع سبيل لتوسيع ملكاته . يغدو الإعجاب والإطراء علامة للضعف أو الاستسلام ، والرغبة في انتقاص القدر والايذاء ودحض الحجة في النقاش تبعث على نوع من ألعاب النار الثقافية . كان من الممكن لمحاولاتي هذه في تثبيت تفوقي باللعن والشتائم أن تكون مسلية الآن ، لو لم يكن عوزها للاستقامة والكياسة العامة مؤلماً جداً .

عملياً ، لم تكن لي في صغري صلة بالعالم الخارجي ، لذا كان لإقحامي في خضم بحر إنجلترا الاجتماعي وعمري سبعة عشرة سنة مايبرره من الشك العظيم لإمكانية بقائي عائماً . لكن تسنى لي بفضل حماية زوجة أخي التي كانت مع أطفالها في برايتون تحمّل الصدمة الأولى .

كان الشتاء يدنو ، وفي إحدى الأمسيات كنا نجلس حول المدفأة نتجاذب أطراف الحديث ، حين جاء الأطفال راكضين ليزفوا لنا الخبر المثير عن تساقط الثلوج ، خرجنا رأساً ، كان الهواء قارص البرودة والسماء مضاءة بنور القمر والأرض متدثرة ببياض الثلج . لم يكن ذلك مظهر الطبيعة المألوف لي ، كان شيئاً آخر مثل الحلم ، تراجع كل ما هو قريب بعيداً ، مخلفاً وراءه زاهداً أبيضَ ثابتاً غارقاً في تأمل عميق . مثل هذه الرؤيا المفاجئة الرائعة الجمال الناجمة عن مجرد الخطو عبر الباب ، لم تحدث لي من قبل أبداً .

مرت أيامي بهناء تحت رعاية زوجة أخي الحنونة والمرح الصاخب مع الأطفال الذين أبهجهم لفظي الغريب للإنجليزية . لم أر سبباً للضحك من ذلك ، وإن شاركتهم ألعابهم بكل جوانحي . كيف لي أن أشرح لهم انعدام المنطق في التفريق بين صوت «a» في كلمة warm وصوت «o» في كلمة worm ؟ أجبرت على تحمل وطأة السخف إلى أقصى حد بسبب تقلبات يصعب تعليلها في التهجئة الإنجليزية .

أصبحت خبيراً في اختراع أساليب جديدة لإبقاء الاطفال مشغولين ومسرورين . قدم لي هذا الفن منذ ذلك الحين منفعة عظيمة ، لكن لم أشعر بنفس الغزارة اللامحدودة للاختراع التلقائي . كانت هذه فرصتي الأولى لأهب قلبي للأطفال ، فرصةٌ تحلّت بكل نضارة وتدفق غزارة المنحة الأولى .

مع ذلك لم أقم بهذه الرحلة لأستبدل بيتاً خلف البحار بواحد في

هذا الجزء من العالم ، كانت الفكرة أن أدرس القانون وأعود للعمل كمحام في المحاكم العليا . لذا ألحقت بمدرسة في برايتون . كان أول ما قاله المدير لي بعد أن تفحص ملامحي «ما أعظم رأسك!» بقي هذا الوصف في ذاكرتي بسبب ما عاهدت نفسي عليه في البنغال من كبح نفسي ، ولأنه طبع في ذهني أن جمجمتي وملامحي مقارنة بالآخرين بشكل عام هي بالكاد من القياس العادي ، أتمنى أن يقدرني القارىء لتصديقي ذلك ضمنياً والرثاء في سريرته لاقتصاد خالقي ، في عدة مناسبات أخرى حين قيمت من قبل معارفي الإنجليز بشكل مختلف لما تعودت عليه ، ساورني القلق بجدية حول اختلاف معايير الذوق بين البلدين .

ما بدا رائعاً بحق مدرسة برايتون أن الطلاب الآخرين لم يكونوا جلفين في معاملتي ، على النقيض ، كثيراً ما وضعوا البرتقال والتفاح في جيوبي قبل أن يفروا راكضين . أفسر هذا السلوك غير العادي لكوني أجنبياً بينهم .

لم أمكث في المدرسة طويلاً ، لا لنقص بها ، وإنما لأن السيد طراق باليت الذي كان حين ذاك في إنجلترا ، رأى أن المدرسة لاتناسبني ، وأقنع أخي بالسماح له لأخذي إلى لندن والنزول في بيت مستأجر .

كان النزل الذي اختاره يقابل ريجنت بارك . بعث منظر الأشجار العارية في زمهرير الشتاء القشعريرة في عظامي . كانت تصطف في الخارج شاخصة بأغصانها الضامرة المغطاة بالثلوج ، وهي تحدق في

السماء .

يصعب وجود مكان أكثر قسوة لغريب حديث القدوم إلى مدينة من لندن في الشتاء . لم أعرف أحداً في الجوار ولم أجد طريقي بسهولة . قضيت أياماً طويلة جالساً لوحدي قرب النافذة ، أحدق في الخارج ، ولم يكن المنظر الجديد جذاباً ، ثمة تجهم يشوب هدوءه والسماء مكفهرة بلا بريق كعين رجل ميت . كان كل شيء متكوراً على نفسه وينأى عن بقية العالم . لم تكن الحجرة مزودة بالقدر الكافي من الأثاث . لكن كانت هناك آلة موسيقية من نوعية الأرغن ، رحت أعزف عليها كما أشاء بعد أن ينصرم النهار قبل أوانه . كان الهنود يأتون أحياناً لزيارتي ، ورغم أن معرفتي بهم كانت سطحية ، لكن حين ينهضون للذهاب ، كنت أود الإمساك بهم من أطراف معاطفهم .

حين كنت في ذلك النزل ، جاء رجل لتدريسي اللاتينية ، لم يكن جسمه النحيل وأسماله البالية بأفضل من الأشجار العارية في تحمل قبضة الشتاء ، لم أعرف عمره ، لكن من الجلي أنه كان يبدو أكبر من سنه . كان يرتبك أحياناً خلال دراستنا على حين غرة ، عندما تخونه كلمة ، فيشعر بالإحراج ويخلو وجهه من التعبير . كانت عائلته تعتقد أنه مهووس لاستحواذ نظرية على تفكيره تقول بهيمنة فكرة واحدة في كل عصر على كل المجتمعات البشرية في كل أرجاء العالم ، وإن كانت تعبر عن نفسها بأشكال مختلفة بدرجات حضارية متباينة ، إلا أنها في الأساس واحدة ، ولا تنقل هذه الفكرة من مجتمع لآخر بالاحتكاك

لأنها توجد حتى في حالة انعدام الاتصال . كان شاغل هذا الرجل الرئيسي جمع وتسجيل الحقائق لإثبات نظريته ؛ في غضون ذلك ، افتقر بيته إلى الطعام وجسده إلى اللباس . كان احترام بناته لنظريته قليلاً وربما يوبخنه دائماً بقسوة بسبب افتتانه بها . قد يرى المرء على وجهه أحياناً علامات تدل على توصله لإثباتات جديدة وأن مقولته حققت تقدماً مماثلاً ، فأتطرق إلى الموضوع وأتحمس لحماسه وفي أيام أخرى يغمره الأسى ، كما لو أن عبئه أثقل من أن يحمله . عندما يتوقف درسنا وتشرد عيناه بعيداً في الفراغ ويرفض عقله العودة إلى صفحات كتاب «مبادىء القواعد اللاتينية» . كنت أشعر بالأسى لنحول جسده الجائع وروحه المثقلة بالنظرية . ورغم أني كنت أشك في قدرته على تدريسي اللاتينية ، إلا أني لم أقدر على أخذ قرار بالتخلص منه . استمر زعمنا بدراسة اللاتينية طوال إقامتي في ذلك النزل ، أثار شفقتي في المساء الذي أردت فيه أن أسوي حسابه حين رحيلي بقوله «لم أفعل شيئاً سوى إضاعة وقتك . لا أستطيع قبول أي مال منك» . أخيراً وبصعوبة كبيرة استطعت إقناعه بأخذ مستحقاته . لا زلت أصدق نظرية مدرسي ، مع أنه لم يغامر بتاتاً بإزعاجي بالبراهين التي تثبتها ، أعتقد أن عقول البشر متصلة معاً بوسيط عميق مستمر وأن أي اضطراب في جزء يصل سراً إلى الأجزاء الأخرى .

بعد ذلك وجد لي السيد باليت مسكناً في بيت مدرس خصوصي يدعى باركر ، يؤجر بيته للطلاب ويعدّهم للامتحانات . باستثناء

زوجته الرقيقة ، لم يكن هناك ماهو جميل في بيته . يمكن للمرء تفهم إمكانية جذب هذا المدرس للطلاب ، لأن تلك المخلوقات المسكينة لا تملك فرصاً للاختيار ، لكن من المؤلم التفكير في الظروف التي يحصل به مثل هؤلاء الرجال على زوجات ، حاولت السيدة باركر تعزية نفسها بتربية كلب ، لذا كان السيد باركر يعذب الكلب حين يود عقاب زوجته . لذا كان اعتمادها على هذا الحيوان يساعد في زيادة ضعفها وقابلية تعرضها للهجوم .

كان سروري بالغاً للهرب من هذا المحيط ، عندما أرسلت زوجة أخي في طلبي من توركي في ديفونشير ، ليس بوسعي التعبير عن مدى سعادتي وأنا بين التلال هناك قرب البحر في الحقول المكسوة بالزهور وتحت ظلال غابات الصنوبر ومعي مرافقاي الصغيران اللعوبان دائما الحركة . مع ذلك كان الشك يساورني ويعذبني حين أسأل نفسي لماذا يهجرني الشعر حين تتخم عيناي بالجمال الوافر ، ويشبع عقلي بالفرح وتمتد أيامي المترفة إلى آفاق غير محدوْدة من السعادة المحضة؟ ! لذا ذهبت يوماً إلى الشاطيء الصخري ، مسلحاً بدفتري ومظلة لأفي بقدري الشعري . لم يكن هناك شك بجمال البقعة التي اخترتها واستقلالها عن أحلامي ونظمي . لوح صخري معلق فوق المياه ، كما لو أنه يود الدنو منها ، والشمس راقدة في السائل الأزرق باسمة ، تهزها تهويدة الأمواج المقطرة زبداً ، وفي الخلفية ، تبسط ذوائب الصنوبر ظلالها كثوب تخلعه حورية غابة متراخية . متوّجاً في مقعدي

الصخري ، كتبت قصيدة «القارب الغريق» . كان يمكن أن أحسبها جيدة الآن لو أني أخذت الاحتياطات اللازمة وأغرقتها في البحر في تلك الساعة ، غير أن هذا العزاء غير متوفر ، لأن القصيدة لاتزال موجودة ، ورغم أنها مستثناة من أعمالي المنشورة ، إلا أن أمراً قد يتسبب في نشرها .

مع ذلك ، كان نداء الواجب ملحاً . عدت إلى لندن لأجد الملجأ هذه المرة في بيت الدكتور سكوت ، الذي غزوت بيته في أمسية جميلة بحقيبة وأمتعة ، كان الدكتور بشعره الأبيض وزوجته وابنته الكبرى هناك فقط . البنتان الصغيرتان المذعورتان من غزوة الهندي الغريب ذهبتا للسكن مع قريب ، أظن أنهما عادتا بعدما قيل لهما إني غير مؤذ .

أصبحت في وقت قصير كأحد أفراد الأسرة . عاملتني السيدة سكوت كابن ، وكان لطف بناتها النابع من القلب نادراً حتى في الأقارب .

ما استرعى انتباهي خلال عيشي مع هذه العائلة أن الطبيعة الإنسانية متشابهة في كل مكان . نحن مولعون بالقول ، وأنا أيضاً كنت أؤمن بذلك ، أن إخلاص وتفاني الزوجة الهندية لزوجها شيء نادر ولا يوجد في أوروبا . ولأني لم أقدر على تمييز أي فارق بين السيدة سكوت والزوجة الهندية المثالية . كانت السيدة سكوت مكرسة نفسها تماماً لزوجها ، وبسبب مواردهم المتواضعة ، لم يكن هناك هرج ومرج

حول وجود عدد كبير من الخدم . كانت السيدة سكوت تقوم بنفسها بكل كبيرة وصغيرة من احتياجات زوجها . قبل أن يعود للبيت من العمل في المساء ، تضع أمام المدفأة أريكته وخفه الصوفي . لم تغفل إطلاقاً الأشياء التي يحبها أو التصرف الذي يسره . كانت تنظف البيت كل صباح مع خادمتها الوحيدة من المطبخ وحتى الغرفة الكائنة تحت السقف ، وتفرك وتلمع قضبان الدرج النحاسية ومقابض الأبواب ولوازم البيت حتى تتألق ثانية . كانت تلبي علاوة على الروتين البيتي ، متطلبات الواجبات الاجتماعية الكثيرة . بعد الانتهاء من أعمالها اليومية ، تنضم إلى قراءاتنا المسائية والاستماع للموسيقى بمتعة ، لأن إضفاء المرح على ساعة الفراغ هو جزء من واجبات ربة البيت الصالحة .

في بعض الأمسيات ، كنت والفتيات نقوم بجلسة تحضير للأرواح . نضع أصابعنا على طاولة شاي صغيرة تأخذ في الطفر مرحاً في الحجرة .

وصلت الأمور إلى حد أن كل ما نلمسه يهتز ويرتجف . لم يعجب ذلك السيدة سكوت إطلاقاً . أحياناً تهز رأسها بوقار قائلة إنها تشك في صحة وصدق ذلك ، لكنها تحملت الأمر بشجاعة كي لا تجلب الكآبة للنفوس اليافعة ، حتى كان يوم وضعنا فيه أيدينا على طاقية المدخنة الخاصة بالدكتور سكوت . كان ذلك أكثر مما تتحمل . انطلقت إلينا غاضبة ومنعتنا من لمسها . لم تتحمل التفكير للحظة أن يكون للشيطان

أي عملٍ ولو مؤقتاً في خوذة زوجها .

كان لتبجيل زوجها المقام الأول في كل أفعالها . تكشف لي ذكرى نكران ذاتها الحلوة أن التعبير الأسمى في كل دروب الحب الانثوي يوجد في التبجيل ، وحيث لا يعوق دخيل تطوره الحقيقي ، ينمو حب المرأة بشكل طبيعي ليرقى إلى العبادة . لا يتسنى لطبيعة المرأة التعبير الكامل عن نفسها ، حيث زخارف الترف كثيرة ، والعبث يبدد الليل والنهار ، عندها ينحط هذا الحب .

قضيت بضعة أشهر في ذلك البيت ، حتى أزف موعد إياب أخي للوطن وكتب لي والدي أن أرافقه . أبهجتني التوقعات المحتملة ، ضوء بلادي وسماؤها كانا يدعواني بصمت . حين قلت وداعاً ، أخذتني السيدة سكوت من يدي وقالت باكية «لماذا قدمت إلينا ، إذا كان عليك العودة سريعاً؟» .

لم يعد لذلك البيت من وجود في لندن . رحل بعض أفراد أسرة الدكتور إلى العالم الآخر ، وآخرون تفرقوا في أماكن مجهولة ، إلا أنه لا يزال قائماً في رأسي .

في أحد أيام الشتاء ، رأيت وأنا أعبر شارعاً في تونبريج ويلز ، رجلاً يقف على جانب الطريق ..كانت أصابع أقدامه العارية تظهر من ثغرات حذائه المشقق ، وجزء من صدره مكشوف . لم يبادرني بشيء ، ربما لأن التسول كان ممنوعاً ، لكنه رفع بصره في وجهي لوهلة . لعل قطعة النقود التي أعطيته إياها كانت أكثر مما توقع ، لأنه تبعني بعد أن ابتعدت

قليلاً وقال «ياسيد ، لقد أعطيتني قطعة ذهبية بالخطأ .» وعرض عليّ إعادتها . كان يمكن أن لا أذكر تلك الحادثة ، لكنها تكررت مرة أخرى في وقت آخر ، عندما وصلت أول مرة إلى محطة قطار توركي ، أخذ حمّال حقيبتي إلى عربة الأجرة في الخارج . بعد أن بحثت في حافظة نقودي عن قطعة نقد صغيرة بلا جدوى ، أعطيته نصف كراون* والعربة قد شرعت في الانطلاق ، لحق بنا بعد وهلة راكضاً وهو يصرخ في السائق أن يقف . تصورت أنه سيطلب المزيد لأني بتلك السذاجة . عندما توقفت العربة قال «لابد أنك أخطأت باعطائي نصف كراون عوض بنس واحد* ، ياسيد» .

لا اقول إني لم أخدع إطلاقاً في إنجلترا ، لكن ليس بالشكل الذي يحفظ في الذاكرة . ماثبت عندي بشكل أساسي هو الاعتقاد أن من هم جديرون بالثقة فقط يعرفون كيف يثقون . كنت أجنبياً مجهولاً وبإمكاني عدم الدفع والإفلات من العقوبة بمنتهى السهولة ، مع ذلك لم يسيء الظن بي أي صاحب متجر في لندن .

تورطت خلال كل إقامتي في إنجلترا في مهزلة عليّ روايتها كاملة من البداية إلى النهاية . حدث أن تعرفت على أرملة مسؤول إنجليزي-هندي رفيع المرتبة . كانت من لطفها تناديني باسم التحبب روبي . نظم أحد أصدقائها الهنود قصيدة حزينة بالإنجليزية في ذكرى زوجها ، لست بحاجة لذكر مآثرها كشعر أو لباقة أسلوبها في التعبير ،

* كراون : قطعة نقدية تساوي خمس شلنات ، والبنس ١/ ١٢ من الشلن(المترجم) .

أشار المؤلف كما شاء سوء الحظ ، أن تغني هذه الترنيمة الجنائزية على طريقة الراجا بيهاج التقليدية القديمة . في أحد الأيام توسلت الأرملة أن أغنيها على هذا النحو ، ولكوني ساذجاً بسيطاً وافقت بضعف . من سوء الطالع لم يكن أحد حاضراً ، غير أني أدركت المزيج المروع لهذه الأبيات السخيفة والراجا بيهاج . تأثرت الأرملة لسماع المرثية الهندية لزوجها تغنى بلحنها الأصلي . حسبت أن المسألة انتهت هنا ، لكن ما كان شيء آخر .

قابلت السيدة الأرملة مراراً في الحفلات الإجتماعية المختلفة . بعد العشاء عندما نلتحق بالسيدات في غرفة الجلوس ، كانت تطلب مني غناء تلك البيهاج . من الجلي أن الآخرين كانوا يتوقعون عينة رائعة من الموسيقى الوطنية ويضيفون توسلاتهم إلى استعطافها . من جيبها تخرج نسخاً مطبوعة للقطعة المشؤومة وتبدأ أذناي في الاحمرار والإحساس بوخز الفاجعة . أخيراً برأس منحنٍ مطرق وصوت مرتجف ، أحاول تقديمها بالشعور الحاد . إنني الوحيد في الحجرة الذي يظن أن الأداء مفجع . بعد ذلك ، من خلال الضحكات الكثيرة المكبوتة ينطلق صوت جماعي «شكراً جزيلاً ، ما أروعها !» . كنت أتصبب عرقاً رغم الشتاء ، من بوسعه أن يتوقع يوم مولدي أو في مماته قسوة الضربة التي سببها لي موت هذا الإنجليزي- الهندي المبجل الموقر ! ! من ثم فقدت الصلة مع الأرملة حين كنت أسكن مع الدكتور سكوت وأحضر المحاضرات في الجامعة . كانت تقطن في الضواحي

بعيداً عن المدينة ، وترسل إليّ الدعوات لزيارتها بين حين وآخر ، لكن الخشية من الترنيمة جعلتني لا ألبيها . أخيراً تسلمت برقية مستعجلة وأنا في طريقي إلى الجامعة مفادها أن إقامتي في انجلترا موشكة على الانتهاء . فكرت ، عليّ أن أزور الأرملة مرة أخرى قبل المغادرة ، لذا استسلمت إلى إلحاحها .

عوض أن أعود إلى البيت من الجامعة ذهبت إلى محطة القطار . كان يوماً مروعاً قارص البرودة ، يتساقط فيه الثلج ويلفه الضباب . كان المكان الذي أقصده في آخر محطة على الخط ، لذا شعرت براحة البال ولم أفكر أن الاستفسار عن وقت الوصول يستحق العناء .

كانت منصات المحطات كلها على الجانب الأيمن . حجبت نفسي في مقعد في ركن من الجانب الأيمن وأخذت في قراءة كتاب . كان الظلام الدامس قد أرخى سدوله وأخفى كل شيء في الخارج . هبط الركاب واحداً بعد الآخر . وصلنا وغادرنا المحطة قبل الأخيرة . ثم وقف القطار مرة أخرى ، لكن لم يكن هناك أحد ولا أضواء ولا منصة ، إلا مسافر لا يملك الوسيلة ليتكهن لماذا تقف القطارات أحياناً في الأوقات والأماكن الخاطئة . لذا قررت أن استرسل في القراءة . بدأ القطار في الحركة إلى الخلف . قلت وأنا أعود إلى كتابي يبدو أن ليس هناك تفسير لغرابة أطوار السكك الحديدية . لكن حين عدنا إلى المحطة السابقة لم يعد بوسعي البقاء لا مبالياً .

«متى سنصل إلى . . .؟» سألت مستفسراً .

«لقد جئت لتوك من هناك .» كان الجواب .

« إلى أين نحن ذاهبون الآن ، إذاً؟» سألت باهتياج وارتباك .

«إلى لندن» عندئذ أدركت أن العربة مكوكية . عندما استفسرت عن موعد القطار التالي إلى . . . . ، قيل لي لاقطار الليلة . ورداً على سؤالي التالي علمت أن أقرب نزل يبعد خمسة أميال .

كنت قد غادرت البيت بعد الإفطار في العاشرة صباحاً ، ولم أتناول أي طعام منذ ذلك الحين . حين يغدو التقشف الخيار الوحيد ، يأتي التفكير الزاهد بيسر . أقفلت أزرار المعطف السميك حول رقبتي وجلست تحت أحد أضواء المنصة ورحت أقرأ ، كان الكتاب «معطيات علم الأخلاق» لسبنسر والمنشور حديثاً يوم ذاك . واسيت نفسي بأني لن أحصل على مثل هذه الفرصة لأركز مخلصاً على هذا الموضوع .

بعد وقت قصير جاء حمَّال وأخبرني أن قطاراً خاصاً قد يجهز في غضون نصف ساعة . سررت جداً للخبر لدرجة أني أطبقت «معطيات علم الأخلاق» . أخيراً وصلت الساعة التاسعة عوض السابعة . «ماهذا ياروبي؟» سألت مضيفتي «ما الذي فعلته بنفسك؟» لم أقدر على الافتخار بالقصة التي رويتها لها عن مغامراتي . كان العشاء قد انتهى ، رغم ذلك ، وحيث أن البلية لم تكن لخطأ أرتكبته ، لم أتوقع عقاباً مستحقاً ، خاصة من امرأة . كان كل ماقالته أرملة المسؤول الإنجليزي-الهندي الكبير« تفضل ، روبي ، إليك بكوب من الشاي» .

لم أكن يوماً محباً لشرب الشاي ، لكن على أمل أن يسكن جزئياً

عصافير بطني ابتلعت كوباً قوياً مع قطعتين من البسكويت الجاف .

أخيراً عندما وصلت إلى غرفة الجلوس وجدت جمعاً من السيدات المسنات وبينهن شابة امريكية جميلة مخطوبة لابن أخ مضيفتي وتبدو منهمكة بطقوس الحب المعهودة المتعلقة بفترة ما قبل الزواج .

«لنرقص قليلاً» قالت مضيفتي ، لم أكن في المزاج أو الحالة لفعل ذلك غير أن الحليم هو الذي يحقق ما يبدو مستحيلاً في هذا العالم . بعد فترة وجيزة ، ورغم أن الرقص كان في المقام الأول من أجل الخطيبين ، وجدت نفسي أرقص مع السيدات المسنات ، في حين يفصلني عن المجاعة شاي وبسكويت .

إلا أن مأساتي لم تنته هنا . «أين ستقضي الليلة؟» سألت مضيفتي . لم أكن مستعداً لهذا السؤال . حملقت بها صامتاً وهي تشرح لي أن من الأفضل أن أحمل نفسي دون جلبة إلى النزل المحلي حيث أنه يقفل أبوابه عند منتصف الليل . لم يكن حسن الضيافة غائباً تماماً لأن خادماً معه مصباح أوصلني إلى الفندق الصغير . في البدء قلت عسى أن تكرهوا أمراً وهو خير لكم فاستفسرت في الحال عن الطعام لحم أو سمك أو خضار ، حار أم بارد ، أي شيء ، قيل لي أن بإمكاني الحصول على المشروبات لا الطعام . حين تطلعت إلى النوم لأنسى مصابي لم أجد عزاءً في كنفه الحنون- كانت أرضية حجرتي من الحجر الرملي البارد كالجليد ، وكل ما فيها من الأثاث مجرد هيكل سرير ومغسلة .

في الصباح دعتني الأرملة للإفطار . وجدت طعاماً بارداً ممدوداً ، من

الجلي أنه بقايا عشاء الليلة الماضية . لو قدم لي منه قليل ، فاتر أو بارد ، الليلة الماضية لما أضر ذلك أحداً ، ولما جعل رقصي مثل سمك الشبوط الذي يحتضر ويتلوى خارج الماء .

بعد الإفطار أبلغتني مضيفتي أن السيدة التي دعيت لأغني لها مريضة طريحة الفراش ، وأن عليّ أن أغني لها من خلف باب حجرة نومها . وقفت في أسفل الدرج ، وأشارت الأرملة إلى باب موصد ، «إنها هنا» غنيت تلك الترنيمة وأنا أواجه المجهول الغامض في الجهة الأخرى . لم أسمع شيئاً عن مصير المقعدة بعد ذلك .

هجعت في الفراش حين وصلت إلى لندن لأكفر عن نتائج كياستي الحمقاء . ناشدتني بنات الدكتور سكوت بضميري أن لا آخذ ذلك كمثال للضيافة الإنجليزية . كان ذلك بالتأكيد تأثير التحفظ الهندي .

26

لوكين باليت

كان لوكين باليت زميلي في الفصل حين كنت أحضر محاضرات الأدب الإنجليزي في الجامعة ، كان يصغرني بحوالي أربع سنوات . في العمر الذي أكتب فيه هذه الذكريات ، لا يشكل فرق أربع سنوات أهمية ، لكن يصعب على الصداقة تجاوز الفرق بين السابعة عشرة والثالثة عشرة . في هذه الحالة يتوق الولد الأكبر دائماً للحفاظ على وقار الأرشدية ، لكن مع لوكين لم يضع ذلك حاجزاً في ذهني ، ذلك لأني لم أعتبره بأي حال أدنى مني .

كان الطلاب والطالبات يدرسون معاً في مكتبة الكلية التي كانت مكان لقائنا وجهاً لوجه . لو توخينا الهدوء في مسارنا لما شكا أحد ، لكن صديقي اليافع كان مشبعاً بالبهجة التي تنفجر بضحكة لأقل بادرة تحريض . للفتيات في كل البلاد درجة من الانكباب الخاطىء في دراستهن ، أشعر بالندم حين أستعيد ذكرى تأنيب العيون الزرقاء العديدة التي أمطرتنا بالاستهجان على صخب مرحنا دون جدوى ، لم يكن عندي أدنى تعاطف آنئذ إزاء الألم الذي يسببه إزعاج الدراسة .

بنعمة الله لم أصب لا بصداع ولا وخز ضمير في حياتي إطلاقاً بسبب قطع استمرارية دراستي المدرسية .

كانت لنا مع ضحكنا الدائم تقريباً بعض المناقشات الأدبية ، ورغم أن اطّلاع لوكين على الأدب البنغالي كان أقل من اطّلاعي ، إلا أنه عوّض عنه بذكائه المتقد . كان علم الإملاء البنغالي من المواضيع التي ناقشناها . ما أثار الموضوع أن إحدى بنات الدكتور سكوت طلبت مني تدريسها البنغالية . عندما بدأت بالحروف الأبجدية ، عبرت عن فخري لكون التهجئة البنغالية تلتزم بما يمليه العقل ولا تبتهج لتجاوز القوانين عند كل منعطف . وضحت لها لولا حشر التهجئة الإنجليزية المأساوي في الامتحانات لكانت مضحكة لصعوبة مراسها وتقلبها . لكن اعتزازي تداعى عندما ظهر أن التهجئة البنغالية تماثل إلى حد بعيد الإنجليزية في ضيق تحملها للقيود . لقد أعمتني قوة العادة من رؤية انتهاكاتها . شرعت في البحث عن القوانين لتنظيم انعدام قوانينها . دهشت للمساعدة الرائعة التي قدمها لوكين .

بعد أن انضم إلى الإدارة المدنية الهندية ورجع للوطن ، جرى العمل الذي بدأه في مكتبة الجامعة بمرح يترقرق كخرير الماء ، منساباً كجدول عريض . كانت بهجة لوكين العاصفة في الأدب كالريح في شراع مغامرتي الأدبية . كنت في أوج الشباب أقود نثري وشعري كدراجة هوائية ذات مقعدين بمعدل سرعة عالية . حافظ إعجاب لوكين الذي لاحصر له على طاقاتي من الوهن لفترة . كثير من تجليات الخيال

الرائعة بدأت في بيته الريفي النائي . وفي مناسبات عديدة كنا نجتمع في لقاءات أدبية وموسيقية تحت رعاية نجم المساء ونتفرق أخيراً تحت نجم الصباح كالمصابيح في نسيم السحر .

من بين زهور اللوتس الكثيرة التي تزين أقدام الإلهة ساراسواتي لا بد أن لوتس الصداقة هي زهرتها المفضلة . لم يحالفني الحظ لأستمتع بكثير من لقاحها الذهبي ، لكن ليس بوسعي الشكوى من ندرة شذى الصداقة الجيدة .

27

القلب المحطم

بدأت في نظم قصيدة أخرى عندما كنت في انجلترا ، واستمررت في كتابتها خلال رحلتي إلى الوطن ، وأنهيتها بعد عودتي . نشرت القصيدة تحت عنوان «القلب المحطم» حسبت في ذلك الوقت أنها جيدة . قد تظن أن ليس في ذلك غرابة ، غير أنها حازت على إعجاب قراء أيضاً . أذكر كيف ، بعد أن نشرت ، عرج عليَّ الممثل الأول للمرحوم راجاتيبيورا لينقل لي رسالة فحواها أن الراجا أعجب بالقصيدة ويعلق آمالاً كبيرة على مستقبل كاتبها الأدبي . دعني أدوِّن هنا ما كتبته حول هذه القصيدة التي كتبتها في الثامنة عشرة في رسالة حين بلغت الثلاثين :

كنت عندما بدأت في كتابة «القلب المحطم» في الثامنة عشرة– لا ولداً ولا شاباً . لا يضاء هذا العمر الواقع على تخوم مرحلتين بالأشعة المباشرة للحقيقة ، منتشراً هنا وهناك والباقي في الظل . تخيلاته مطوَّلة مبهمة مثل ظلال الشفق وتجعل العالم الواقعي يبدو كالحلم . ليس الغريب أني كنت في الثامنة عشرة ، لكن كل من حولي كان يبدو في

الثامنة عشرة أيضاً . كنا جميعاً نطوف من مكان إلى آخر بسرعة في نفس عالم الحلم عديم الجوهر والأساس ، حيث تبدو أكثر الأفراح والأحزان شدة وهماً . لم يكن هناك معيارٌ حقيقيٌ لتزن به ، هل المبتذل في مقام العظيم .

كانت هذه الفترة من حياتي الواقعة بين سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة والحادية والعشرين أو الثالثة والعشرين ، فترة فوضى عارمة . في أوائل حياة الأرض ، قبل أن تفصل اليابسة عن الماء تماماً ، كانت الحيوانات البرمائية العملاقة تجوب الأدغال عديمة الشجر التي ازدهرت في السبخات البدائية . انفعالات العقل غير الناضج ، الدوامة مماثلة ، مشوهة ومنتفخة ، وتتناب قفار العقل عديم الاسم والأثر ، إنها تجهل ماهيتها ولماذا تطوف ، لهذا السبب تميل إلى التنكر البيئي الغروتسك الغريب ، بالنسبة لي ، كان عمراً لنشاط عديم المعنى حيث تتصادم قدراتي النامية اللاواعية وغير المساوية لأهدافها الحقيقية مع بعضها البعض لتجد مخرجاً ، وتتشوف كلها لتأكيد تفوقها بالغلو .

حين تحاول أسنان الحليب أن تشق طريقها عبر اللثة تسبب للطفل الحمى . ليس للتهييج من تبرير ظاهر حتى تظهر الأسنان وتبدأ في المساعدة على تناول الطعام . تعذب انفعالاتنا المبكرة العقل بنفس الأسلوب ، مثل الأمراض ، حتى تحقق علاقتها الحقيقية مع العالم .

توجد الدروس التي تعلمتها من تجربتي في ذلك الوقت في كل كتب الأخلاق المدرسية ، لذا لايجب الاستخفاف بها . يسمم حياتنا كل ما

من شأنه أن يحبس حوافزنا في قلوبنا ويكبح حرية انطلاقها للخارج ، ترفض الأنانية مثلاً ، السماح لرغباتنا بحرية العمل وتمنعها من إحراز مكانتها ، لذا يقيح قرينها المقرب دائماً بالزيف . حين تسنح فرصة لرغباتنا بالانطلاق في شكل عمل قيم ، يتبدد الضلال ويفرض ظرف أكثر طبيعية نفسه ، هذه هي الحالة الحقيقية للطبيعة الإنسانية ، ومتعة كوننا بشراً .

عزز حالة فكري غير الناضجة التي وصفتها لتوي القدوة والمبدأ الأخلاقي لذلك العصر ، ولست على يقين من زوال تأثيراتها . تشعرني نظرة سريعة على تلك الحقبة أن الأدب الإنجليزي كان حافزاً أكثر منه زاداً . كان شكسبير وملتون وبايرون آلهتنا في الأدب ، وقوة الانفعال أكثر ما أثارنا في أعمالهم . يكبح هيجان العواطف بضراوة في الحياة الاجتماعية الإنجليزية ، ولعل هذا يفسر سبب سيطرتها على الأدب الإنجليزي الذي يتصف بقمع المشاعر المتقدة لدرجة الانفجار المحتم . هذا على الأقل ما اعتبرناه في البنغال جوهر الأدب الإنجليزي .

كان في خطبة أكشاي شودهوري العنيفة حول الشعر الإنجليزي التي فتحت الباب لنا على الأدب الإنجليزي جموح الثمل . أثار إعجابنا حب روميو وجوليت المسعور ، وغضب التفجع الواهن للملك لير ، ونار غيرة عطيل الحارقة . كانت حياتنا الاجتماعية الصارمة بمجال نشاطها الضيق محصورة بالرتابة لحد لم تجد المشاعر العاصفة معه مدخلاً ؛ كان كل شيء في غاية الهدوء والسكون . لذا كان من

الطبيعي أن تتوق قلوبنا لصدمة العاطفة التي تبعث الحياة في الأدب الانجليزي . لم تكن هذه متعة جمالية ، بل ترحيباً حاراً بموجة هائجة ، حتى ولو جلبت للسطح وحل القعر الراكد .

في الوقت الذي استفز فيه قمع القلب الإنساني أخيراً رد الفعل المعروف بعصر النهضة في أوروبا ، كانت مسرحيات شكسبير المعادل لرقصات الحرب . لم تكن اعتبارات الخير والشر والجمال والقبح هاجسها الأساسي .

عوض ذلك ، استهلك القلق الإنسان ودفعه لتحطيم كل الحواجز وأعمق مقدسات وجوده ليكتشف صورة جوهرية مطلقة لأكثر رغباته عنفاً . يعلل هذه الخشونة والغزارة والعبث المسرف في الشهوانية الذي نجده عند شكسبير .

وجد المرح الصاخب المعربد هذا سبيلاً إلى عالمنا الاجتماعي الرزين جيد الخلق ، فأيقظنا وبعث فينا الحياة . تتطلع أفئدتنا ، التي أخمدتها الطقوس إلى فرصة للعيش ، ونحن مبهورون بالأفق الطليق الذي تبدى لنا . شيء مماثل حدث في الأدب الإنجليزي ، عندما حل إيقاع الثورة الفرنسية الراقص مكان الرقص البطيء لعصر بوب العادي . كان بيرون شاعره ، وشق عنف اندفاعه الحجاب الذي حفظ قلوبنا في عزلة عذرية .

على هذا النحو ، سيطر السعي وراء الأدب الإنجليزي على شباب عصرنا وأنا من بينهم . استمرت الأمواج المتكسرة للإثارة في لطمي من

كل الأطراف . كانت اليقظة الأولى هذه وقتاً لإذكاء النار لا القمع .

مع ذلك كانت حالتنا مختلفة جداً عن أوروبا . هناك ، كانت سرعة الاهتياج وضيق الصدر بالقيود انعكاساً للتاريخ في الأدب . كانت كشفاً أصيلاً للمشاعر . سمع هدير العاصفة ، لأن عاصفة حقيقية كانت ثائرة ، لكن ما أن وصلت عالمنا حتى غدت أكثر بقليل من نسيم عليل . لقد فشلت في إرضاء عقولنا ، وقادتنا محاولتنا لتقليد انفجار إعصار إلى العاطفية بسهولة ، نزعة لا تزال مستمرة بإصرار ليس من السهولة شفاؤها .

المشكلة أن الأدب الإنجليزي هو أدب لم يظهر تحفظ الفن الحقيقي فيه بعد . لا يعدو كون الانفعال إلا أحد مقومات الأدب وليس خلاصته التي تقوم في التحصيل الأخير على البساطة والتحفظ ، لا يقر الأدب الإنجليزي هذا الافتراض تماماً .

تصاغ عقولنا ، من الطفولة إلى الشيخوخة ، بواسطة الأدب الإنجليزي فقط ، لكن آداب أوروبا الأخرى ، الكلاسيكية والمعاصرة ، التي أبدت تطوراً في ضبط النفس المنظوم ، ليست مواضيع دراستنا ، لذا يبدو لي ، أننا لا نزال عاجزين عن الوصول إلى إدراك صحيح للغاية والمنهج الحقيقيين للعمل الأدبي .

كان اكشاي بابو ، الذي جعل انفعال الأدب الإنجليزي حياً لنا بنفسه نصيراً للحياة العاطفية . كان إدراك الحقيقة بالنسبة له ، أقل أهمية من الشعور بها في فؤاده . لم يكن له صلة فكرية بالدين ، إلا أن أغاني

شاياما -الأم السوداء- كانت تملأ عينيه بالدموع . لم يشعر بضرورة للبحث عن الواقع المطلق ، كل ما يحرك شغاف قلبه كان في لحظته حقيقة ، حتى الفظاظة البديهية لم تكن رادعاً .

كان الإلحاد السمة المهيمنة على كتابات النثر الإنجليزي الرائجة حين ذاك -بينثام ، ميل ، كومت ، هم الكتاب المفضلون- كانت حججهم واستنتاجاتهم لغة نقاش شبابنا . يشكل عصر ميل عهداً طبيعياً في التاريخ الإنجليزي ، ويمثل ردة فعل صحية للأمة بوصفها وحدة سياسية خاضعة لحكومة . جاءت هذه القوى المدمرة ، مؤقتاً ، للتخلص من تراكم الأفكار الهراء . تبنت بلادنا آدابهم لا روحهم ، لم نسعَ لاستخدامها عملياً ، بل وظفناها فقط كحافز يحثنا على التمرد الأخلاقي . كان الإلحاد ، بالنسبة لنا ، مجرد سكرٍ مسمم .

لهذه الأسباب انضوى الرجال المثقفون في فئتين رئيسيتين . الفئة الأولى تلقي بنفسها دائماً إلى الأمام بحجة غير استفزازية لتقطع كل إيمان بالله ، كصياد تستحكه يداه لقتل مخلوق حي حالما يلمحه على شجرة . كان هؤلاء الناس كلما علموا بمعتقد غير مؤذٍ كامن في طمأنينة وهمية يشعرون بالإثارة للانقضاض عليه وتدميره . كان هذا لأحد مدرسينا انحرافاً محبباً . كنت مجرد ولد ، غير أني لم أفلح في الهرب من هجماته الضارية . لم تكن إنجازاته مهمة ولا أفكاره حصيلة بحث دؤوب عن الحقيقة ، بل مجموعة أساساً من شفاه الآخرين . ورغم مقاومتي له بكل قواي ، إلا أني لم أكن نداً ، وعانيت كثيراً من

الهزائم المريرة . كنت أحياناً أشعر بجرح مشاعري وأوشك على البكاء .

الفئة الثانية ، لاتتألف من المؤمنين ، بل من أبيقوريّي* التدين ، الذين وجدوا الراحة والسلوان في التجمع معاً والانغماس في المشاهد السارة والأصوات والروائح الوافرة تحت زي الشعائر الدينية ، ويعيشون بترف في ممتلكات العبادة . لم يكن الشك أو الافكار ، في كلا الفئتين ، حصيلة مخاض وكد بحثهم .

رغم أن مثل هذا الضلال الديني آلمني ، فإني لا أدّعي بأني لم أتأثر به إطلاقاً . تمردت بصفاقة الشباب الفكرية . لم أشارك في صلوات أسرتنا لأني لم أتقبلها . شغلت نفسي بنفخ لهيب خوار عواطفي . كانت هذه مجرد نار تعبد ، تقديم القرابين لإذكاء اللهب ، دون أي غاية أخرى . كانت جهودي لاتعرف حداً لانعدام هدف لها ، وتتشوف دائماً للوصول إلى ماوراء أي قاعدة .

لم أشعر بأي حاجة لحقيقة تحتية في الدين وفي حياتي العاطفية؟ كانت الإثارة كل شيء . يستحضر هذا بعض الأبيات لشاعر من ذلك العصر :

قـلـبي ملـكي
لم أبعه لأحد ،

---

* منسوب إلى فلسفة أبيقور الذي قال إن المتعة هي الخير الأسمى والفضيلة وحدها هي مصدر المتعة . فلسفة الإنغماس في الملذات الحسية . المترجم

ليكن باليا ً، ممزقاً ومثقلاً ،

قـلـبي مـلـكـي .

في الحقيقة لا حاجة لأن يقلق القلب نفسه . ما من شيء يجبره على ارتداء الأسمال البالية . لا يشتهي الآسى حقاً . لكن عندما يعزل عن الحياة تغدو حدته ممتعة . بجل شعراؤنا ذلك مراراً ، غافلين الله الذي يودون عبادته . هذه صبيانية لم تتخلص منها بلادنا بعد . لذا نفشل اليوم في رؤية حقيقة الدين ونشغل أنفسنا عوض ذلك في إشباع جمالي . تماماً مثلما كثير من وطنيتنا ليست خدمة أصيلة للوطن الأم ، بل إشباعاً عاطفياً بكل بساطة .

28

الموسيقى الأوروبية

ذهبت مرة عندما كنت في برايتون لسماع بريما دونا* لا أذكر اسمها . لعلها مدام نيلسون أو مدام ألباني . لم أسمع من قبل مثل هذا التحكم الرائع في الصوت . ليس بميسور أفضل مغنينا إخفاء حسهم بالجهد ولا بالحياء من تقديم ، بكل ما في وسعهم ، النغمات العالية والمنخفضة التي تتجاوز قدراتهم الصوتية . لا يمانع القسم المتفتح من سامعينا في الحفاظ على الأداء الرفيع بفضل مخيلاتهم . وعليه لايكترثون لأي خشونة في الصوت أو غرابة في الايماءات من شارح لحن كامل البناء ، على النقيض ، يعتقدون أحياناً أن مثل هذه النواقص الخارجية الطفيفة أفضل لإبراز الكمال الداخلي للراجا ، مثل النقر الخارجي لزاهد الماهدينا العظيم ، الذي يشع لاهوته من عريه .

هذا الإحساس مفقود في أوروبا ، حيث يتوجب أن تكون الزخرفة الخارجية كاملة في كل صغيرة وكبيرة ، وأي عطب يسبب الخزي ويمنع من مواجهة نظرة الجمهور . لا يعير صغير أو كبير في حفلاتنا الموسيقية

---

* المغنية الأولى في أوبرا - للمترجم .

اهتماماً إذا مرت نصف ساعة في دوزنة أوتار التابنورا أو قرع الطبول . في أوروبا مثل هذه المهمات تحضر مسبقاً خلف الكواليس ، لأن ما يعرض على الجمهور يجب أن يكون بلا أخطاء . لا تسامح والتماس أعذار لأي ضعف في صوت المغني في بلادنا . الهدف الرئيسي هو عرضُ اللحن الصحيح والفني ، وكل الجهود تنصب على ذلك . في أوروبا الصوت هو هدف الثقافة ، ويقدمون عبره المستحيلات . يرضى خبراؤنا المتمكنون من الفن إذا سمعوا الأغنية ، أما في أوروبا فيذهبون لسماع المغني .

كان ما رأيته في برايتون بجودة السيرك . أعجبت بالأداء لا بالأغنية . أحجمت عن الضحك بصعوبة حين قلد بعض حافظي الإيقاع تغريد الطيور . خالجني شعور بأن في ذلك إساءة استعمال للصوت البشري . عندما جاء دور المغني شعرت بالانفراج . أحببت على وجه الخصوص أصوات التنور التي بها لحم ودم أكثر ، ولا تبدو مثل عويل أرواح بائسة محررة من الجسد .

بعد ذلك ، حين ثابرت على سماع وتعلم الموسيقى الأوروبية أكثر وأكثر ، بدأت في تفهم روحها . بيد أني لا زلت مقتنعاً بأن موسيقانا وموسيقاهم تقطنان في شقق مختلفة ، ولا تجدان مدخلاً إلى القلب من نفس الباب . تتداخل الموسيقى الأوروبية والحياة المادية لأوروبا ، لذا قد يكون نص الأغاني متبايناً كالحياة نفسها . إذا حاولنا وضع أنغامنا على نفس اختلاف الاستعمالات تصبح مضحكة وتفقد

أهميتها ، لأن ألحاننا تتشوف للسمو بالحياة اليومية وطمسنا عميقاً في الشفقة ، فهي رفيعة في تحفظها لتكشف صميم وجودنا . لا ينفذ إليها وغير قابلة للوصف ، يجد فيها النصير المتحمس معتزله وحتى الابيقوري جنته ، لكن لا مكان فيها لرجل الدنيا المشغول .

ليس بوسعي الادعاء أني أحسست بروح الموسيقى الأوروبية لكن القليل الذي فهمته من الخارج جذبني بشدة إليها . بدت لي في غاية الرومانسية ، تحليل ما أعنيه بهذه الكلمة صعب نوعاً ما ، ما يجول بفكري هو التنوع وفيض الأمواج في بحر الحياة ، ولعب الضوء والظل الدائم فوق تموجاتها . ثمة وجه مناقض للامتداد اللامتناهي ، للسماء الزرقاء التي لاتومض ، للتلميح الصامت الذي لا حد له في دائرة الأفق البعيدة ، ومع ذلك ، دعني أكرر ، خشية أن لا أكون كامل الوضوح أني كلما تأثرت بالموسيقى الأوروبية كنت أقول لنفسي : إنها رومانسية وتترجم بالألحان اضمحلال الحياة .

لا يعني ذلك أننا نفتقر كلياً لنفس الهدف في بعض أشكال موسيقانا ، إنها أقل وضوحاً وإنجازاً . تهب ألحاننا صوتاً للنجوم التي ترصع بلمعانها الليل ، وللسماء المحمرة في أوائل السحر . إنها تتكلم عن الأسى الطاغي الذي يسدل سواد سحب العاصفة والثمالة البكماء للربيع الهائم في الغابة .

29

فالميكي براتيبها

كنا نملك مجلداً مزخرفاً بإسراف من كتاب مور «ألحان آيرلندية» كثيراً ما استمعت إلى إلقائها المبهج من قبل اكشاي بابو . تستحضر القصائد المشفوعة بتصميمات مصورة في الذهن حلماً لآيرلندا القديمة . لم أكن قد سمعت حين ذاك الألحان الأصلية ، غير أني غنيتها لنفسي بمصاحبة القيثارات البادية في الصور . كنت أتطلع لسماع الألحان الأصلية وتعلمها وغنائها لاكشاي بابو . تحققت ، من سوء الحظ ، بعض هذه الأمنيات وماتت أثناء سير العملية . سمعت بعض هذه الألحان الآيرلندية وتعلمتها أيضاً حين ذهبت إلى إنجلترا ، الأمر الذي أدى لوضع حدٍ لحماسي في إكمال تعلمها . كانت بسيطة وحزينة وحلوة عذبة ، لكنها لا تلائم لحن القيثارة الصامت الذي ملأ قاعات أيرلندا بأحلامي .

غنيت الألحان الآيرلندية التي تعلمتها لعائلتي عندما عدت للوطن ، «ماذا حدث لصوت رابي؟ كم يبدو مضحكاً وأجنبياً؟» قالوا بتعجب . شعروا حتى بأني أتكلم بشكلٍ مختلف .

من هذا الخليط المهذب للألحان الأجنبية والمحلية ولدت فالميكي برايتبها «عبقرية فالميكي» . كانت معظم الألحان في هذه الدراما الموسيقية هندية ، غير أنها جردت من وقارها الكلاسيكي . ما حلّق في السماء ، عُلّم كيف يجري على الأرض ، أنا على يقين أن من شاهدوها وسمعوا أداءها يشهدون بأن تسخير صيغ الألحان الهندية لخدمة الدراما لم يكن بلا طائل ولم يحط من قدرها . هذا التوحيد هو السمة الخاصة الوحيدة لفالميكي برايتبها . لقد استحوذت عليّ تماماً المهمة المفرحة لحل قيود الألحان وملاءمتها لمعالجات مختلفة .

وضعت بعض أغاني فالميكي براتيبها على ألحان ذات صيغ كلاسيكية جداً ، وبعضها من تأليف أخي جيوتيرنيدرا ، وقلة من مصادر أوروبية . سخر أسلوب صيغ تالينا الهندي بشكل خاص لأغراض درامية واستخدم مراراً في هذا العمل ، وكذلك لحنان انجليزيان لأغاني شراب عصابات اللصوص ، ولحن آيرلندي من مرثيات حوريات الغابة .

ليست فالميكي برايتبها قطعة موسيقية تحتمل القراءة . إذا لم تغنّ وتمثل تفقد أهميتها . هي دراما صغيرة على خلفية موسيقية ، وليست ما يدعوه الأوروبيون أوبرا ، بعبارة أخرى ، هي ليست في المقام الأول قطعة موسيقية ، تخدم الأغاني القليلة ، المهمة أو الجذابة ، كنص موسيقي للمسرحية ليس إلا .

قبل ذهابي إلى إنجلترا ، كنا نقيم في بيتنا من حين لآخر تجمعات

لرجالات الأدب تعزف فيها الموسيقى وتلقى الأشعار وتقدم المرطبات الخفيفة . بعد رجوعي أقيمت آخر حفلة . كتبت فالميكي براتيبها من أجلها . أديت دور فالميكي وقام ابن أخي براتيبها بدور ساراسواتي . كانت قليلاً من التاريخ مدوناً باسم الدراما .

قرأت في كتاب لهيربرت سبنسر أن الكلام يأخذ انعطافات موسيقية كلما ظهرت العاطفة . صحيح أن النغمة واللحن مهمان كالكلمة المنطوقة للتعبير عن الغضب والحزن والفرح والتعجب . راقت لي فكرة سبنسر القائلة إن الإنسان وجد الموسيقى عبر تطور هذه التغيرات العاطفية في طبقات الصوت . لم لا أحاول تمثيل دراما بطريقة إلقاء ملحن تقوم على هذه الفكرة؟ إلى حد ما ، حاول شعراؤنا المحليون فعل ذلك ، لأنهم كثيراً ما أدخلوا ترنيمة لا تصل إلى صيغة اللحن التام . كما الشعر المرسل أكثر طواعية من المقفّى ، كذلك الترانيم ، رغم عدم خلوها من الإيقاع ، يمكن أن تطوع نفسها بحرية للتفسير العاطفي للنص ، لأنها لاتطمح لمطابقة القوانين الصارمة الخاصة باللحن والوقت الذي يتطلبه تأليف اللحن العادي . لما كان الهدف هو التعبير عن المشاعر لذا لا تسبب نواقص الشكل إزعاجاً للمستمع .

شجعني نجاح هذا الخط الجديد في فالميكي براتيبها لتأليف مسرحية موسيقية أخرى على نفس النمط ، تدعى كال مريجايا «الصيد المقدر المشؤوم» . يقوم الموضوع على قصة من الرامايانا حول مقتل ابن الكاهن الأعمى الوحيد بالصدفة من قبل الملك داشاراثا . مثلت على

مسرح نصب على سطح بيتنا ، ويدا أن عناصرها المثيرة للشفقة قد أثرت على المتفرجين بعمق . بعد ذلك ومع بعض التغييرات الطفيفة ، دمج معظمها في فاليكي براتيبها ، وتوقف نشر المسرحية منفصلة في أعمالي المنشورة .

بعد فترة طويلة كتبت مسرحية موسيقية ثالثة تدعى «مايار كيلا» أوبرتا من نمط مختلف . كانت الأغاني فيها مهمة وليس الدراما . في العملين الأخيرين مزجت اللحن بسلسلة من المواقف الدرامية ؛ هنا خلطت مختارات من الأغاني مع أقل قدر ممكن من المواضيع . كان عرض المشاعر لا الحركة سمتها الأساسية ، كنت مشبعاً بأجواء الأغنية وأنا أكتبها .

لم أشعر بمثل الحيوية التي غمرتني أثناء تحقيق فاليكي براتيبها ، وكال مريجايا في أي عمل آخر من أعمالي . عبّر هذان العملان عن الهياج الموسيقي لذلك العصر .

انهمك أخي جيوتيرنيدرا بالعزف على البيانو طوال اليوم ليجدد صيغ الألحان الكلاسيكية كما يرتأي . في كل دورة لآلته ، كانت الأنماط القديمة تأخذ أشكالاً لم تخطر على بال ، وتعبر درجات جديدة من المشاعر . قدمت صيغ الألحان التي روّضت لتخطو بمشيتها الجليلة الأصيلة ، بعدما أجبرت على السير وفق أوزان غير تقليدية وأكثر حيوية ، برشاقة وقوة غير متوقعة وأثرت بنا أيضاً . كان بميسورنا سماع الألحان وهي تخاطبنا بوضوح ، في حين جلست وأكشاي بابو على

جانبيه نلائم الكلمات للألحان المنسابة من أنامل أخي الرشيقة . لا أدعي أن نص الأوبرا كان شعراً جيداً ، لكنه صلح كوعاء للألحان .

في المرح الثوري الصاخب الذي كتبت فيه هاتين المسرحيتين الموسيقيتين ، رقصوا بسعادة على كل وزن موسيقي دون اعتبار لكونه صحيحاً من الناحية التقنية أم لا ، غير مبالين أكانت الألحان محلية أم أجنبية .

أبدى جمهور القراء البنغاليين ألمهم ، في أكثر من مناسبة ، إزاء بعض أفكاري وصيغي الأدبية . لكن من الغريب أن الفوضى الجريئة التي قمت بها ضمن الأفكار الموسيقية المقبولة لم تثر أي امتعاض ، بل على النقيض رجع كل من استمع إليها مسروراً . وجدت بعض قطع اكشاي بابو الموسيقية مكاناً لها في فالميكي براتيبها ، مع اقتباس سلسلة من أغاني بهاري شاكرا فارتي «ساروا ماتجال» .

كنت أقوم بأداء الدور الرئيسي في تمثيل هذه المسرحيات الموسيقية لولعي بالتمثيل منذ نعومة أظافري . أعتقد جازماً بأني أتحلى بقابلية خاصة تجاهه ، وأظن أني برهنت أن اعتقادي له أساس من الصحة . كان الدور الأول الذي قمت بأدائه دور اليك بابو في مسرحية ساخرة كتبها أخي جيوتيرنيدرا . كنت يومها صغيراً ولا شيء يتعب أو يزعج صوتي .

كان في بيتنا حين ذاك شلال من العاطفة الموسيقية يتدفق يوماً إثر يوم ، وساعة تلو ساعة ، ينشر رذاذه في وجودنا على شكل سلسلة

كاملة من الألوان . انطلقنا بيفاعة الشباب وطاقته المدفوعة بفضول حديث الولادة ، في طرقات بكل الاتجاهات . أردنا محاولة كل شيء وشعرنا أن ما من شيء يستحيل إنجازه . كتبنا وغنينا ومثلنا ، واغدقنا بأنفسنا في كل صوب . هكذا خطوت في سنتي العشرين .

كان أخي جيوتيريندرا من بين القوى الدافعة لحياتنا قدماً بظفر ، وقائد العربة الذي لا يعرف الخوف مطلقاً . مرة ، حين كنت مجرد غلام لم يمتطِ صهوة جواد من قبل ، أركبني على حصان وراح يعدو بجانبه . في نفس العمر عندما كنا في شيليداه - مركز أحلامنا - ووصل خبر عن وجود نمر ، أخذني معه في حملة الصيد . لم يكن بحوزتي بندقية ، ولو كانت معي لكانت أخطر عليّ من النمر . تركنا أحذيتنا على حافة الغابة وزحفنا حافيي الأقدام .

أخيراً وصلنا أيكة بامبو عارية جزئياً من أغصانها الشبيهة بالشوك حيث جثمت خلف أخي حتى أنجزت المهمة ، دون وسيلة لعقاب الوحش الفظ ولا حتى ضربه بحذاء لو جرؤ على وضع مخلبه الآثم عليّ .

هكذا ، منحني أخي حرية كاملة في الداخل والخارج لمواجهة كل المخاطر ، لم تمنعه عادات ولا أعراف ، وبهذا استطاع أنْ يخلصني من حياتي الانطوائي .

30

أغاني المساء

في حالة الانهماك في الشؤون الذاتية التي تحدثت عنها ، كتبت عدداً من القصائد التي جمعت معاً تحت عنوان هريدي أراينا -قفر القلب- في طبعة موهيت بابو من أعمالي . في إحدى القصائد التي نشرت فيما بعد في مجلد يدعى برابهات سانجيت -أغاني الصباح- وردت الأبيات التالية :

ثمة قفر فسيح اسمه القلب

أغصان غابته المتحابكة تؤرجح وتراقص الظلمة بدلال كطفلٍ ،

في أعماقه ، أضعت سبيلي .

اشتق اسم مجموعة هذه القصائد من هذه الأغاني .

حذف من هذه النسخة كثير مما كتبت ، عندما لم يكن لي صلة بالخارج وحين كنت مستغرقاً في تأملات قلبي الخاصة وسرحت خيالاتي متخفية في عواطف لامبرر لها وأشواق دون غاية . أعيد نشر بعض القصائد التي نشرت في الأصل في مجلد يدعى ساندهيا سانجيت -أغاني المساء- في الجزء المسمى «قفر القلب» .

سافر أخي جيوتيريندرا مع زوجته في رحلة طويلة ، فأصبحت حجرهم في الطابق الثالث المواجه لشرفة السطح شاغرة . انتقلت إليها ورحت أقضي أيامي في عزلة أناجي روحي ، ولا أدري كيف لم انزلق في أخدود الشعر الذي وقعت فيه من قبل . ربما حرَّرت نفسي بشكل طبيعي حين ابتعدت عمن سعيت لإرضائهم وعمَّن صاغ ذوقهم في الشعر ، الشكّل الذي حاولت فيه صب أفكاري .

ساعد في تحرري استعمالي لوحاً للكتابة . أزعجتني الدفاتر التي كنت أكتب فيها لأن تدوين شيء فيها يتطلب زاداً من الخيال الشعري يرنو إلى بلوغ مرتبة الشعراء المعروفين . من الواضح أن الكتابة على لوح مسألة نفسية مؤقتة ، كأنها تقول «لاتخف ، اكتب ماتريده فقط ، حكة واحدة تمحو كل ماكتبت» .

كتبت قصيدة أو اثنتين دون قيود ، شعرت في داخلي بمتعة حقيقية «أخيراً» قال قلبي «ما أكتبه هو ملكي» . لا يتوجب على أحد أن يظن أن هذا اعتداد بالنفس . لقد شعرت بالفخر حيال أعمالي السابقة وهذا كل ما منحتها من ثناء . أرفض دعوة البداية المفاجئة للثقة بالنفس إشباع غرور . لا يعود سرور الآباء بمولودهم الأول إلى الفخر بقدومه ، بل لأنه ملكهم إذا حدث وأن أصبح الطفل خارقاً ، يمكن لهم الاعتزاز بذلك ، لكن هذه مسألة أخرى .

لم أبالِ في الفيض الأول لهذه الفرصة بقيود الأوزان ، تماماً كما لا يجري الجدول بخط مستقيم ، بل يشق طريقه متلوياً أو متمعجاً كما

يهوى ،كانت أشعاري . كنت أعتبر ذلك في السابق جريمة ، والآن لا أشعر بالندم ، في البدء تحطم الحرية القيود ، ومن ثم تسنُّ القوانين التي تضعها تحت الحكم الذاتي الحقيقي .

كان المستمع الوحيد لهذه الكتابات الغريبة الضالة هو اكشاي بابو ، دهش حين سمعها أول مرة بقدر ما سرته . وسع استحسانه درب حريتي .

كانت قصائد بهاري شاكرافاتي تخضع لنظام الأوزان الثلاثة الذي يقدم تأثيراً عالمياً على عكس مضاعفة الأوزان الثنائية . يجري النظام هذا بيسر وينسل بسلاسة كما لو أنه يرقص على رنين خلخالها . كنت حيناً مولَعاً بهذا الوزن الذي يشعرك بقيادة دراجة هوائية أكثر من كونك سائراً على قدميك ، وعلى خطواته الواسعة تعودت . في «أغاني المساء» كسرت هذه القيود دون تفكير ، ودون الوقوع تحت نفوذ أي سلطان آخر . أحسست بالحرية الكاملة وعدم الاكتراث ، ولم أخشَ أو أفكر بالتوبيخ .

قادتني القوة التي حصلت عليها بالعمل بعيداً عن شباك التقاليد إلى اكتشاف أنني كنت أبحث في أماكن مستحيلة عن شيء هو في الواقع في داخلي . لم يقف حجر عثرة في طريق أن أصبح نفسي سوى نقص الثقة الذاتية ، أحسست كما لو أني أستيقظت من كابوس لأجد نفسي متحرراً من الأصفاد . تصرفت بحماقة كي أتأكد أني حُرّ الحركة . بالنسبة لي هذه هي أكثر فترة جديرة بالتذكر في حياتي

الشعرية . ربما ليس «لأغاني المساء» قيمة كبيرة كقصائد . في الواقع هي غير ناضجة وغير متقنة ولم يأخذ لا وزنها ولا لغتها ولافكرها شكلاً محدداً . لكن للمرة الأولى كتبت ما أردته حقاً ، تماماً كما أحسست . حتى لو لم يكن لها قيمة خالدة فإن المتعة لا ريب باقية .

31

مقالة في الموسيقى

كنت أعتزم دراسة القانون عندما استدعاني أبي من إنجلترا . ضغط بعض الأصدقاء القلقين على مستقبلي المهني بسبب هذا الانقطاع على أبي لإعادتي إلى هناك . أدى هذا لشروعي في رحلة ثانية إلى إنجلترا ، هذه المرة مع قريب كمرافق . إلا أن قدري أبى بقوة أن أصبح محامياً لحد لم أصل فيه هذه المرة حتى إلى إنجلترا .

هبطنا في مدراس وعدنا إلى كلكتا . لم يكن السبب بأهمية وخطورة القرار ، لكن حيث أن السخرية لم تكن بسببي ، سأحجم عن ذكرها ، هكذا فشلت رحلات حجي إلى مقام لاكشمي ، إلهة الثروة . أتمنى أن ينظر إليّ إله القانون . على الأقل ، بعين الرضا لأني لم أضف معوقات مبنى مكتبة القانون .

كان والدي آنئذ في تلال موسوري . ذهبت إليه وأنا أرتعش رهبة . بدا مسروراً دون أيّ علامات سخط . لا بد أنه رأى في عودتي نعمة من العناية الإلهية .

ألقيت في المساء الذي سبق بداية رحلتي بحثاً في قاعة كلية الطب

بناء على دعوة من جمعية بيثون . كانت هذه قراءتي الأولى أمام الجمهور . كان الكاهن ك .م . بانيرجي هو الرئيس ، والموضوع هو الموسيقى . بالتغاضي عن موسيقى الآلات ، حاولت أن أبرهن أن الهدف الأساسي لموسيقى الصوت هو إظهار ماتريد الكلمات التعبير عنه بشكل أفضل . كان نص بحثي قصيراً ، لذا غنيت ومثلت الأغاني بالتفصيل لأوضح موضوعي . لابد أن الإطراء الذي شملني به الرئيس في النهاية يعود إلى تأثير صوتي اليافع المصحوب بالجدية وتنوع محاولته . أقر الآن أن الفكرة التي ناديت بها بحماسٍ كانت خاطئة .

تتصف موسيقى الصوت بسماتها الخاصة ، وحين يصحبها الكلام عليه أن لا يتجرأ كثيراً على اللحن الذي هي بالنسبة له مجرد وعاء أو تسعى لتركه إذا كانت الأغنية عظيمة في حد ذاتها ، فلم عليها خدمة الكلمات؟ يبدأ اللحن حيث تفشل حدود الكلمات ، وتكمن قوته في المنطقة التي لاتقبل الوصف ، ويبوح لنا بما تعجز عنه الكلمات .

وعليه تكون الأغنية أفضل كلما كانت محملة بكلمات أقل . ليس للكلمات في الأسلوب الكلاسيكي الهندستاني أهمية ، كما يترك اللحن يخلق قابليته على طريقته الخاصة . تحقق موسيقى الصوت الكمال عندما يتسنى لأداء اللحن التطور بحرية ، والسمو بوعينا إلى مستواه الرفيع . في البنغال فرضت الكلمات نفسها دائماً بقوة مما جعل الأغاني تفشل في تطوير ملكاتها الموسيقية بشكل كامل ، وبقيت راضية في أن تكون خادمة للشعر . من أغاني فيشنافا القديمة وإلى

أغاني نيدهو بابو ، قدمت الأغاني البنغالية سحرها عبر الخلفية فقط . عليها أن تقتدي بالزوجات في بلدنا اللاتي يطعن أزواجهن صورياً ، وفي الواقع يحكمنهم ؛ الموسيقى التي تخدم الكلمات في العلن ، يجب في الواقع أن تسيطر عليها . أحسست بذلك مراراً وأنا أكتب الأغاني . كتبت وأنا أهمهم لنفسي هذه الأبيات :

لا تحفظ سرك لنفسك ، ياحبيبي

بل أهمسه لي برفق ، لي فقط

وجدت أن الكلمات في حد ذاتها لا تملك الوسائل للوصول إلى المنطقة التي يتفوق فيها اللحن . أنبأني اللحن أن السر الذي كنت ألح على سماعه قد امتزج مع الغموض الأخضر لقطع الأرض الجرداء من الأشجار في الغابة ، وانغمس في صفاء البياض الصامت لليالي المقمرة ، ويتلصص من خلف حجاب الزرقة اللامتناهية في الأفق ، وهو أكثر أسرار الأرض والسماء والمياه حميمية .

سمعت في طفولتي المبكرة مقطعاً من أغنية :

من ألبسك ، ياحبيبتي ، كأجنبية؟

رسم هذا البيت وحده صوراً رائعة في ذهني لاتزال تستحوذ عليّ للآن . جلست يوماً أكتب كلمات لأحد ألحاني وأنا مشبع بهذا البيت من الأغنية . كتبت وأنا أهمهم لحين تكملة للبيت ؛

أعرفك ، أيتها المرأة من الأراضي الغريبة !

بيتك وراء البحر .

لو لم يكن اللحن موجوداً ، لما عرفت كيف سيكون شكل باقي القصيدة ، لكنها كشفت لي ، كما أتت ، الغريب في جمالها أنها هي ، قالت روحي ، التي تأتي وتذهب ، رسولة إلى هذا العالم من الشاطىء الآخر لمحيط الغموض . إنها هي التي نلمحها من حين لآخر في صباحات الخريف الندية ، وفي ليالي الربيع الشذية ، في أعمق أعماق قلوبنا ، وأحياناً نجهد أنفسنا كثيراً لسماعها . إلى باب هذه الغريبة الفاتنة ساقني اللحن ، وإليها موجهٌ ما تبقى من كلماتي .

بعد ذلك بوقت طويل ، وفي شارع في بولبور ، كان متسول من البول* يسير وهو يغني : كيف يقفز الطير المجهول من وإلى القفص !

آه ، لو صدته ، لطوقت أقدامه بحبي !

وجدت هذا المتسول يردد ما تقوله أغنيتي . يقيم الطير المجهول في القفص أحياناً ، ويهمس بأنباء العالم اللامحدود خارج أسلاك القفص ، ويشتهي القلب بشغف أن يمسك بالعصفور إلى الأبد ، لكنه يعجز . هل بمقدور شيء غير اللحن أن يشي لنا بمجيء وذهاب الطير المجهول؟ !

يفسر هذا معارضتي الدائمة لنشر كلمات أغنياتي ، لأن الروح ستكون معدومة لامحالة .

---

* راجع شرح المفردات في نهاية الكتاب .

32

قرب النهر

يوم عدت من بداية رحلتي الثانية إلى إنجلترا ، كان أخي جيوتيريندرا وزوجته يعيشان في دارة قرب النهر في شاندانناجار ، حيث ذهبت لأمكث معهم .

نهر الجانجز ثانية ! تلك الأيام والليالي التي لاتوصف مرة أخرى ، مُضنية في مرحها ، مثيرة في شوقها ، متناغمة مع خرير ماء النهر تحت فيء ضفافها المشجرة . هذه السماء البنغالية بنورها الوضيء ، والنسيم الجنوبي وجريان النهر ، هذا الخمول الفخم الحقيقي الممتد في مدى الأفق من الأرض الخضراء إلى السماء الزرقاء ، كلها كانت كالطعام والشراب للجائع والظاميء . حقاً ، كان المكان كالبيت ، وهذه الهبات الطبيعية كالأم .

لا أتكلم عن وقت بعيد ، إلا أن الزمن قد غيرَّ الكثير . حلت مكان استراحتنا الصغيرة قرب النهر المحمية بالنبات الأخضر طواحين هواء مثل التنين رافعة رؤوسها المهسهسة عالياً في كل مكان وهي تقذف الدخان الأسود . في وهج منتصف نهار الحياة العصرية ، ضاقت حتى

ساعات قيلولتنا العقلية إلى أدنى الحدود ، وغزا قلق حيوان الهدرة* ذي الرؤوس كل شعاب الحياة . لعل هذا للأفضل ، غير أني لا أقدر على اعتباره كامل الجودة .

مرت أيامي هذه قرب النهر مثل براعم اللوتس المقدسة العائمة في الجدول المقدس . قضيت بعض أوقات ما بعد الظهيرة الماطرة في نوبة جنون حقيقية أشدو بأغاني فيشنافا القديمة على الحاني بمصاحبة الأرغن . في أوقات أخرى ، كنا نبحر برفق في قارب وأخي جيوتيريندرا يعزف على الكمان وأنا أغني . كنا نبدأ بغناء راجابورافي ونسترسل في غناء تنوعات الراجا مع انصرام النهار ، ونشاهد حين نصل إلى راجابيهاج ، السماء الغربية وقد أسدلت مصراع النوافذ على مخزن ألعابها الذهبي وبزغ القمر في الشرق . من ثم نجذف عائدين إلى درجات الدارة . ونجلس على لحاف مبسوط على السطح المقابل للنهر . في غضون ذلك يخيِّم السلام الفضي على الأرض والماء ، ونادراً ما تشاهد القوارب وذوائب الأشجار على الضفة في ظل قاتم ، وضوء القمر يتلألأ على انسياب التيار الناعم .

كانت الدارة التي نقيم فيها تعرف باسم مورانز جاردن . تقود مجموعة درجات حجرية من الماء إلى شرفة طويلة وواسعة تشكل جزءاً من البيت . لم تكن الغرف مرتبة بانتظام وليست جميعاً على نفس

---

* الهدرة : حيوان خرافي ذو تسعة رؤوس قتله هرقل ، فكان كلما قطع رأساً من رؤوسه هذه نبت محله رأسان جديدان .(المترجم)

المستوى ، لذا موصل بعضها بدرجات قليلة . كان لغرفة الجلوس الكبيرة المطلة على الدرجات المؤدية إلى النهر نوافذ زجاجية مصبوغة بصور ملونة .

كانت إحدى الصور لأرجوحة مدلاة من غصن نصفه مغطى بأوراق الشجر الكثيفة ، وفي الضوء والظل مختلف الألوان ، يتأرجح في هذه التعريشة شخصان ، وثمة صورة أخرى لدرجات كبيرة تقود إلى قصر يشبه القلاع ، عليها رجال ونساء يرتدون زي الاحتفالات ، صاعدين وهابطين ، حين يحط النور على النوافذ ، تشع هذه الصور بروعة ، وتخلفني في حالة ابتهاج ، في البعيد مرح صاخب يلمع في الضوء بصمت ، يبعث في الغابة المحيطة بعض إثارة المتأرجحين لوحدهما ، في ظلال هذه القصة المجهولة .

تقع أعلى غرفة في البيت في برج دائري له نوافذ تشرف على كل الجهات . كانت هذه حجرتي لكتابة الشعر . لايرى شيء منها سوى رؤوس الأشجار . والسماء الشاسعة . كنت حين ذاك منهمكاً في كتابة «أغاني المساء» . وفي هذه الغرفة كتبت :

هنا ، حيث يهجع الغمام في حضن الفضاء اللامتناهي

شيدت بيتي لك ، أيها الشعر .

33

مزيد عن أغاني المساء

كانت سمعتي بين نقاد الأدب في ذلك الوقت أني شاعر الإيقاع المكسور والكلام الصبياني المتلعثم ، وكل أعمالي ضبابية مبهمة . لم تكن التهمة باطلة مهما حاولت التقليل من استساغتها . كان شعري يفتقر إلى العمود الفقري لواقع الحياة . كيف لي أن أحصل على المادة الضرورية لذلك في عزلة سنواتي المبكرة المطبقة .

إلا أن ما رفضت الإقرار به التلميح بوجود تكلف متعمد خلف هذه التهمة بالضبابية . يميل البروفسور قوي النظر إلى السخرية من الشاب الذي يرتدي النظارات الطبية ، كما لو أنه يفعل ذلك للزينة . وإن كان يمكن إلحاق الأذى بهذا الشاب المسكين لضعفه ، فمن السوء بمكان اتهامه بالتظاهر بعدم الرؤية .

الغموض هو أحد وجوه الإبداع ، وليس شيئاً خارج الوجود تماماً . لا يقربنا من الأدب الحقيقي بتاتاً رفض كل الشعر الذي لا يتسم بالوضوح . كل حالة من طبيعة الإنسان وجدت تعبيراً صادقاً تستحق البقاء والحفظ ، ولايمكن دحرها جانباً إلا إذا فشلت في ذلك ، ثمة

مرحلة من حياة الإنسان لا يعبر عنها تتسم مشاعره فيها بمحنة الغموض وإثارة الشفقة ، مع ذلك لا يجوز القول لا مبرر لشعره ، يمكننا في أسوأ الأحوال القول إن شعره عديم القيمة ، وإن لم يكن من الضرورة أن يكون كذلك . ليست الخطيئة في التعبير عن شيء ، بل في العجز عن التعبير عنه .

ثمة ازدواجية في الإنسان تجعله لا يعرف ولا يبالي كثيراً بالشخص القابع في داخله وذلك تحت ضغط انسياب الأفكار والمشاعر والأحداث الخارجية ، بيد أنه لايمكن تجاهل وجوده في الحياة ، يتألم هذا الساكن الداخلي ، حين تفشل الحياة الخارجية والداخلية في الانسجام معاً ، ويعبر عن ألمه للخارج بطريقة يصعب تسميتها أو حتى وضعها ، إنها صرخة أقرب إلى عويل أبكم منها إلى الكلمات ذات المعنى المحدد .

كان لعواطف الشفقة التي عبر عنها في «أغاني المساء» جذورها في أعماقي . تماماً كما يصارع وعي الإنسان الخامد في النوم كابوساً يحاول البزوغ ، فإن النفس الداخلية الخفية تناضل لتحرير نفسها من التعقيدات والخروج إلى العلن . هذه الأغاني هي قصة هذا الصراع . هناك قوى متعارضة في الشعر كما في كل مجالات الخلق الأخرى . إذا كان الاختلاف كبيراً جداً ، أو الانسجام ضئيلاً جداً ، عندها لاتكون هناك فرصة للشعر . تصبب الكلمات نفسها شعراً كصورة من مزمار حين يناضل التنافر للوصول إلى غاية ويذيب نفسه في تناغم منسجم .

حين رأت «أغاني المساء» النور أول مرة ، لم يعلن عن نجاحها بأصوات الأبواق المدوية ، وإن لم تفتقر إلى المعجبين أيضاً . لقد ذكرت في مكان آخر كيف قوبل بانكيم بابو عند وصوله حفل زفاف ابنة السيد راميش شاندرادوت الكبرى ، من قبل المضيف بإكليل الزهور المعتاد ، وعندما دخلت أخذ بانكيم بابو الإكليل بلهفة ووضعه حول رقبتي قائلاً «الإكليل له يا راميش ، ألم تقرأ أغاني المساء؟ عندما اعترف السيد دوت بأنه لم يفعل ، كانت الطريقة التي تكلم فيها بانكيم بابو عن بعضها خير مكافأة .

أكسبتني «أغاني المساء» صديقاً أثار استحسانه مثل أشعة الشمس براعم محاولاتي الجديدة وأطلقها . كان ذلك بابو بريياناث سين الذي أفقده «القلب المحطم» قبل ذلك كل رجاء بي ، وكسبته ثانية بفضل «أغاني المساء» . يعلم معارفه أنه بحار خبير بكل بحور الأدب السبعة وتنفذ بحوثه المعروفة والمجهولة دائماً إلى كل اللغات الهندية والأجنبية تقريباً ، يعطي الحديث معه لمحات عن معظم أفكار العالم غير المطروقة . أفادتني معرفته كثيراً .

كان بميسوره تقديم آرائه الأدبية بثقة كاملة ، لاعتماده على ذوق يساعد في توجيه ما يحب وما لا يحب ، يعجز لساني عن وصف مساعدة نقده لي . كنت أقرأ له كل ما أكتب ، ولولا زخات إعجابه المميَّز التي تهطل في حينها ، لما كان لحرثي وزرعي أن يأتيا بالغلة التي حصدتها .

34

اغاني الصباح

كتبت أثناء إقامتي قرب النهر قليلاً من النثر أيضاً دون تخطيط أو موضوع محدد ، بالطريقة التي يصطاد فيها الأولاد الفراش . تولد حين يأتي الربيع إلى ذهن خيالات متنوعة جمة قصيرة الأمد ، وترفرف بجناحها هناك . هي عادة لا تلاحظ ، لعلها مجرد رغبة لجمع ما جال في خاطري حين ذاك ، أو ربما ألقت ذاتي الطليقة بمخزونها خارجاً وقررت أن تكتب ماتهوى . كان المهم عملية الكتابة لا ما أكتبه . نشرت هذه القطع النثرية لاحقاً تحت عنوان «مقالات الغواصين» ، ولم ترَ النور في الطبعة الثانية .

أعتقد أني بدأت روايتي الأولى «سوق الملكة الشابة» في ذلك الوقت .

بعد أن قضينا وقتاً قرب النهر ، استأجر أخي جيوتيريندرا منزلاً في كلكتا في شارع سادرا قرب المتحف حيث بقيت معه . في غضون كتابتي الرواية وأغاني الصباح ، انفجرت في داخلي ثورة هامة .

كنت أذرع سقف منزلنا في جوارسانكو مجيئة وذهاباً في وقت

متأخر من بعد الظهر ، ساعة أضفت حمرة مابعد المغيب الممزوجة بانحسار شفق المساء الآتي سحراً سماوياً ، وازدادت حتى جدران البيت المجاور جمالاً . هل يمكن أن يكون رفع غطاء التفاهة هذا عن العالم اليومي خدعة ضوء؟ أبداً .

كان بميسوري رؤية حلول المساء بي حالاً ، وانطماس ظلاله في ذاتي . تمزج النفس وتخفي كل شيء حين تهيج في وهج النهار ، الآن وهي قابعة في الخلفية باستطاعتي رؤية العالم بوجهه الحقيقي . الوجه المليء بالجمال والبهجة ، لا تفاهة فيه .

منذ تلك التجربة وأنا أكرر متعمداً محاولة تأثير كبت نفسي ، ورؤية العالم كمجرد مشاهد . كوفئت على ذلك بمتعة خاصة . أذكر أني حاولت أيضاً أن أشرح لقريب دون جدوى كيف يرى العالم بألوانه الحقيقية وتخفيف الحس بالعبء من جراء هذه الرؤية .

من ثم غنمت نفاذ بصيرة أعمق ، رافقتني طوال حياتي .

كانت نهاية شارع سادار . حدث أن كنت واقفاً على الشرفة في إحدى الصباحات أنظر في ذلك الاتجاه حيث أشرقت الشمس قبل لحظات عبر رؤوس الأشجار المورقة ، على حين غرة سقط جفن من عيني وأنا أحدق ، فرأيت العالم يستحم في بهاء رائع ، وأمواج الجمال والفرح تزداد في كل صوب . دلفت أشعة البهاء في ثنايا الحزن والقنوط اللذين تراكما في فؤادي وغمراه بنور شامل .

تدفقت في ذلك اليوم قصيدة «يقظة الشلال» وجرت مثل شلال .

انتهت القصيدة ولم يسدل الستار على فرحي . لم يغدُ شخص أو شيء تافهاً أو غير مسرٍ بالنسبة لي ، ولا حتى الرجل الذي جاء في اليوم التالي أو بعده . كان شخصاً غريباً يزورني بين حين وآخر ويسأل كل أنواع الأسئلة السخيفة . سأل مرة «هل رأيت الله بأم عينك ، ياسيد؟» عند إقراري بلا ، جزم أنه رآه .

«ماذا رأيت؟» سألته .

«هاج أمام عيوني» كان جوابه .

عادة لا يميل الإنسان لمناقشة مثل هذا الرجل ، علاوة على أنني كنت مستغرقاً حين ذاك تماماً في كتابتي ، مع ذلك وحيث لا ضرر منه ، لم أرغب في إيذاء مشاعره ، لذا تحملته بقدر المستطاع .

عندما جاء هذه المرة ، شعرت بالشوق لرؤيته ورحبت به بحرارة . انحسر حجاب غرابته وجنونه . كان الشخص الذي رحبت به هو الرجل الحقيقي الذي شعرت بأنه لا يقل عني ، وأكثر من ذلك تربطني به علاقة حميمة حين لم تزعجني رؤيته ولم أشعر بضياع الوقت ، غمرتني سعادة فائقة وأحسست بالخلاص من بعض نسيج الزيف الحاجب الذي كان يسبب لي ما لست بحاجة له من الألم وقلة الراحة .

بدت لي ، وأنا واقف على الشرفة ، حركات وأشكال وملامح كل المارة أياً كانوا فائقة الروعة في انسيابهم المترقرق على محيط الكون . من الطفولة وأنا أرى بعيوني فقط ، الآن بدأت في الرؤية بكل وعي .

شاهدت شابين مبتسمين يسيران بغير اكتراث ، ذراع أحدهما على ظهر الآخر . لم يكن بوسعي رؤية ذلك كلحظة قصيرة ، لأني أحسست فيها بأعماق إرادة الفرح الخالدة التي لايسبر غورها ، يتناثر منها رذاذ لا يحصى من الضحك ، ويتطاير في كل أرجاء المعمورة .

لم ألاحظ من قبل حركات الأطراف والأسارير التي ترافق أقل حركات الإنسان . الآن أصبحت مسحوراً بمختلف أشكالها وأوقاتها ، مع ذلك لم أرها منعزلة ومستقلة ، بل كأجزاء من الرقص الجميل المدهش الذي يشكل عالم الإنسان وينفذ عبر كل بيت وكل نشاط وحاجة إنسانية متنوعة .

صديق يضحك مع صديق ، أم تداعب طفلها ، بقرة تمشي بجانب بقرة وتلعق جسدها . أنزلت بي كثرة هذه الحركات صدمة يقرب مذاقها من الألم .

حين كتبت في تلك الفترة :

لا أدري كيف فتح قلبي أبوابه على حين غرة

وسمح لحشود العالم بدلوفه ، يحيي بعضهم بعضاً .

لم يكن ذلك مبالغة . الأحرى أني أفتقرت الى قوة التعبيرعن كل ما شعرت به .

بقيت فترة في نعمة نكران الذات هذه . ثم فكر أخي بالذهاب إلى دارجيلنج . حسبت أن هذا أفضل ، ففي قمم جبال الهملايا الشاسعة سيتسنى لي التعمق أكثر في ما انكشف لي في شارع سادار ؛ على كل

سأرى كيف ستعرض الهملايا نفسها على رؤية موهبتي الجديدة . إلا أن النصر كان في ذلك البيت الصغير في شارع سادار . أدركت حالما صعدت الجبال ونظرت حولي أني فقدت رؤيتي الجديدة . لا بد أن غلطتي كانت لا تزال في تخيل أن صدقاً أكثر يمكن أن يأتي من الخارج . لا يقدم لي ملك الجبال شيئاً من موهبته مهما كانت قوته في اختراق السماء ، في حين يمكن للمعطي أن يتعطف بمنح رؤية خالدة في أقذر زقاق وفي لحظة من الزمن .

تجولت بين أشجار التنوب وجلست قرب الشلالات واستحممت في مياهها . حدقت في عظمة كانشينجونجا في سماء صافية من الغيوم لكن هناك ، في ما بدا لي أقرب الأماكن لوجودها ، لم أجد شيئاً . عرفتها غير أني فشلت في رؤيتها بعد ذلك ، حين كنت أظهر إعجابي بالحجر الكريم أطبق باب الصندوق فجأة وتركني أحملق في علبة الجواهر . لكن بسبب براعة صنعها العالية الجودة . لا خوف الآن من خلطي بينها وبين مجرد صندوق فارغ . أشرفت «أغاني الصباح» على النهاية ، وخط آخر سطورها مع «الصدى» التي كتبتها في دار جيلنج . كانت مبهمة لدرجة حدت بصديقين للرهان على معناها الحقيقي . كان عزائي الوحيد أني لم أقدر أيضاً على شرح اللغز لهما عندما طلبا مني الحل . لذا لم يخسر أياً منهما الرهان .

واحسرتاه ، على الأيام التي ولت ، حين كنت أكتب قصائد مباشرة حول «اللوتس» أو «بحيرة» .

لكن هل يكتب المرء الشعر ليفسر شيئاً؟ إنه شعور في القلب يحاول أن يجد صيغة خارجية في قصيدة . أرتبك عندما يقول شخص بعد سماع قصيدة أنه لم يفهمها . إذا شم زهرة وقال نفس الشيء ، قد يكون الجواب «ليس هناك مايفهم ، إنها مجرد شذى» إذا أصر قائلاً «أعرف هذا ، لكن مامعنى كل شيء؟» عندها على المرء إما أن يغير الموضوع أو يزيد الأمر غموضاً بإخباره أن الشذى هو الشكل الذي أخذه الفرح الكوني الشامل في هذه الزهرة بالذات . الصعوبة هي أن للكلمات معان .

وهذا يفسر لماذا على الشعراء تبديلها وتحريفها في الوزن والقافية حتى يبقى المعنى مقيداً نوعاً ما ويسمح للمشاعر بالتعبير عن نفسها .

لا يلزم التعبير عن المشاعر إقرار صيغة أساسية أو معلومة علمية أو فكرة أخلاقية مفيدة . القصيدة مثل دمعة أو ابتسامة مجرد صورة لما يجري في الداخل . إذا جنى العلم أو الفلسفة أي فائدة منها ، فعلى الرحب والسعة ، لكنها لم تكتب لذلك ، إذا اصطدت سمكة من معدية فأنت رجل محظوظ ، لكن هذا لايجعلها مركب صيد ، ولا يتوجب عليك الإساءة لصاحب المعدية إذا لم يجعل صيد السمك مهنته .

«الصدى» قصيدة كتبتها منذ أمد بعيد ، ولا أذكرها لتقديم شرح لمعناها . رغم ذلك مهما كانت حسناتها أو سيئاتها الأخرى ، فإني أؤكد للقارىء أن قصدي لم يكن تقديم لغز أو إنشاء رسالة خفية

بذكاء . واقع الأمر أن شوقاً ولد في قلبي ، ودعوت مارغبت فيه «صدى» لعجزي عن إيجاد اسم آخر .

يوم انبثقت من أصل ومنشأ الكون تيارات اللحن ، انعكس صداها من وجوه المحبين والأشياء المحببة الأخرى المحيطة بنا ودلف قلوبنا . مانحبه يجب أن يكون هذا الصدى ، وليس الأشياء التي يعكس منها ، لأن ما نتلطف بالنظر إليه يوماً بصعوبة ، يمكن أن نكرس له كامل جهودنا في يوم آخر .

لقد نظرت إلى العالم برؤية خارجية لمدة طويلة ، حتى لم أعد أرى وجهه الشامل وبهجته . حين يجد شعاع نور طريقه فجأة من أعمق الأعماق الداخلية لوجودي ، ينتشر في كل مكان ويضيء كل الأشياء التي لاتعدو أموراً وأحداثاً مكتومة ، بل منفتحة أمام رؤيتي ككل .

التيار الذي يجري من اللامحدود إلى المحدود هو الحقيقة والخير ؛ وهو عرضة للقانون ومحدد في الشكل ، صداه هو الجمال والفرح ، أي أنه أكثر شيء غير ملموس يقربنا من أنفسنا . هذا ما حاولت أن أقوله في «الصدى» عبرْ حكاية رمزية أو أغنية . إذا كانت النتيجة غير واضحة فلا عجب من ذلك ، إن المحاولة ليست واضحة لمن قام بها .

دعني أدوِّن هنا مقطعاً من رسالة كتبتها في عمر متقدم حول «أغاني الصباح» :

لا شيء في العالم يوجد حقاً سوى قلبي الذي هو حالة فكرية يتسم بها سن معين . حين يستيقظ القلب أول مرة ، يمد يديه ويحاول أن

يستحوذ على العالم بأسره ، كطفل بأسنان جديدة يحسب أن لا شيء مصنوع لفمه ، تدريجياً يدرك ما يرغبه حقاً وما لايرغبه . من ثم تضيق حوافزه الضبابية وتأخذ شكلاً وربما تتوهج أو تضيء نفسها .

إذا أراد الإنسان منذ البدء الاستحواذ على كل العالم ، فلن يحصل على شيء . حين يركز بكل قواه رغبته على شيء مهما كان، تمسي بوابة اللانهائي في متناول اليد . كانت «أغاني الصباح» أول مشروع لذاتي الداخلية ، وتفتقر نتيجة ذلك إلى أي دلالة لهذا التركيز .

للجيشان الأول الطاغي للفرح هذا تأثير يقودنا إلى اتجاه أكثر تمييزاً ، تماماً مثل بحيرة تبحث عن منفذ كنهر . في طبعة موهيتبابو لأعمالي ، وضعت أغاني الصباح ، في مجموعة من القصائد تحت عنوان «الانبثاق» . توجد في هذه القصائد أول أنباء هروبي من قفر القلب إلى العالم الرحب . منذ ذلك الحين ، أقام هذا القلب الحاج صلته بذلك العالم ببطء ، وجهاً بعد وجه ، بأتراحه وأفراحه ، ظلاله وأشعة شمسه ، وفي نهاية المطاف ، بعد هبوط عدد وافر من الدرجات المتغيرة الكفاف إلى النهر منزلقاً ، ستصل إلى اللانهائي ، لا إسهاباً غامضاً ، بل الكمال التام للحقيقة .

كنت أستمتع في صغري بالاتصال البسيط الحميم مع الطبيعة . كان لكل شجرة جوز هند في حديقتنا شخصية مميزة . أذكر الآن بوضوح كيف كنت أرى عند عودتي إلى البيت من المدرسة السحب الزرقاء الرمادية المشبعة بالماء تتراكم بكثافة فيغمرني فرح عميق عظيم في

وهلة . وعندما أفتح عينيَّ في الصباح ، يناديني العالم المستيقظ السعيد للالتحاق به كرفيق لعب ؛ وتخطفني بخفة سماء الظهيرة المتقدة ، من الوجود اليومي إلى أعماق صومعة ناسك خلال ساعات القيلولة الصامتة ، ويفتح ظلام الليل الباب على دروب وهمية ويحملني فوق البحار السبع وعبر الأنهر الثلاثة عشرة متجاوزاً كل الاحتمالات والمستحيلات إلى عالم العجائب .

ثم في أحد الأيام ، بحلول فجر الشباب ، شرع قلبي الجائع بالبكاء من قلة الزاد ، فوضع حاجزاً لتفاعل الداخل والخارج ، دار كل كياني حول قلبي القلق ، محدثاً دوامة حصرت وعيي . ضياع الانسجام هذا نتيجة ادعاءات القلب الطاغية ، والانقباض المترتب عن تبادل أفكاري ومشاعري ، هو ماتفجعت عليه في «أغاني المساء» .

احتفلت بعد ذلك في «أغاني الصباح» بانفتاح بوابة الحاجز المفاجيء نتيجة صدمة مجهولة ، استعدت عبرها صلتي المفقودة ، ليس كما عرفتها من قبل فحسب ، بل بشكل أعمق وأشمل بفضل النفور الطاريء .

وهكذا ختم الكتاب الأول من حياتي بهذه الفصول من الاتحاد والانفصال وإعادة الاتحاد . في الواقع ليس صحيحاً أنها ختمت . سيستمر نفس الموضوع مثبتاً تعقيدات أسوأ وحلولاً أكثر أحكاماً ويقود إلى محصلة أعظم . كل منا يأتي ويتم فصلاً من كتاب أكبر . يشبه الأمر أسلاك دولاب الدراجة عند إلقاء نظرة خاطفة يبدو كل سلك في

المحيط مستقلاً ، لكن في الواقع كل الأسلاك ترجع إلى مركز الدولاب نفسه .

نشرت الكتابات النثرية لفترة «أغاني المساء» ، كما أسلفت ، تحت اسم بيبدها برابانداها . كتابات أخرى ذات صلة بوقت كتابة «أغاني الصباح» ظهرت تحت عنوان ألوشانا «محاورات» . السمات المختلفة لهاتين المجموعتين هي مؤشر جيد للتغير الذي طرأ عليَّ في تلك الغضون .

35

راجيندرا لال ميترا

في تلك الأيام فكّر أخي جيوتيريندرا بتأسيس أكاديمية أدبية لجمع شمل كل رجالات الأدب المعروفين . كانت الأكاديمية تهدف لتصنيف الاصطلاحات الفنية الموثوقة في اللغة البنغالية . ومن ناحية أخرى المساعدة في نموها -فكرة مشابهة لأكاديمية الآداب الحديثة .

تبنى الدكتور راجيندار لال ميترا الفكرة بحماسٍ وأصبح رئيسها طوال فترة وجودها القصيرة . عندما ذهبت لدعوة البانديت فيديا ساجار للانضمام إليها ، أصغى لشرحي حول أهدافها وأسماء الأعضاء المقترحين قبل أن يقول «نصيحتي لك أن تتركنا خارجها . لن تحقق شيئاً أبداً مع ذوي الشأن من المشاهير ، لأنهم لايتفقون مع بعضهم بعضاً» . برفضه أصبح بانكيم بابو عضواً ، لكن لا أستطيع القول إنه أولى العمل اهتماماً كبيراً .

بصراحة ، عمل راجيندرا لال ميترا وحده طوال مدة وجود الأكاديمية . بدأ بالمصطلحات الجغرافية حيث صنفت اللائحة التمهيدية من قبل الدكتور راجيندرا لال شخصياً ، ثم طبعت ووزعت على

الأعضاء لإبداء الرأي . كانت عنده فكرة أخرى لكتابة اسماء الدول الأجنبية بحروف اللغة البنغالية كما تلفظ .

تحققت نبوءة البانديت فيديا ساجار . ثبت استحالة جمع المشاهير لفعل أي شيء ، واندثرت الأكاديمية في وقت قصير بعد أن تفتحت براعمها ، إلا أن راجيندرا لال ميترا كان خبيراً متعدد البراعات ، أكاديمية بنفسه .

كوفئت على عملي في هذه الأكاديمية بأكثر مما أستحق ، فلقد تعرفت على الدكتور راجيندرا . قابلت في حياتي كثيراً من رجالات الأدب البنغاليين ، على أن أحداً لم يترك انطباعاً بمثل هذه الألمعية كما فعل .

كنت أذهب لزيارته في مكتب الوصاية في مانيكتولا في الصباح فأجده دائم الانهماك في دراسته ، وبطيش الشباب غير المراعي للآخرين لا أجد حرجاً في إزعاجه . لكن لم يُبْد أي تأفف مطلقاً . كان يضع جانباً مابين يديه حالما يراني ، ويأخذ في مجاذبتي أطراف الحديث . كان من المعروف أنه ثقيل السمع ، لذا لم يعطني الفرصة لطرح أسئلة عليه . كان يطرح موضوعاً واسعاً ويتكلم حوله ، وهذا سبب انجذابي إليه . لم يوفر لي حديث أي شخص آخر مثل هذا الغنى من الأفكار إزاء العديد من المواضيع المتنوعة . كنت أستمع إليه ببهجة لا حدود لها .

أعتقد أنه كان عضواً في هيئة الكتب المدرسية ، ويشفع كل كتاب يتلقاه للموافقة عليه بعد قراءته بتعليق على حاشيته بقلم رصاص .

كان يختار أحياناً أحد هذه الكتب كنص للحديث عن بنية فقه اللغة البنغالية بشكل عام . كان في ذلك فائدة كبيرة لي . لم تكن هناك مواضيع كثيرة لم يدرسها ، ويفسر كل ما درسه بوضوح . لو لم نحقد على الأعضاء الآخرين في الأكاديمية الغر ، وتركنا كل شيء إلى الدكتور راجيندرا لال ، لورثت أكاديمية الآداب الحديثة ، ودون ريب ، ما يشغلها الآن في صورة متطورة .

كان الدكتور راجيندار لال ميترا باحثاً عميقاً ، ومن ناحية أخرى شخصية مؤثرة تشع من ملامحه . كان يتصرف بكياسة ، وهو المفعم بالحيوية في الحياة العامة ، ويتكلم في معظم المواضيع العسيرة مع غلام مثلي دون أي مسحة من التكبر . لقد استغللت هذا الحد أني أخذت منه مساهمة إلى بهاراتي تدعى «كلب ياما» . لم أكن أجرؤ على فعل ذلك مع معاصريه الآخرين العظماء ، ولا كنت سأقابل بمثل هذا الجواب لو فعلت .

مع ذلك ، كان معارضوه في المجلس البلدي أو المجلس الأعلى في الجامعة يرتعدون خوفاً عندما يغضب . في تلك الأيام ، كان كيرشنا داس بال الدبلوماسي في السياسة ، ورجيندرا لال ميترا المقاتل الباسل .

توجب عليه توظيف عدد من معلمي السنسكريتية للقيام بالأعمال الميكانيكية في الجمعية الآسيوية للنشر والبحوث . أذكر كيف أثار ذلك حسد بعض ذوي العقول الدنيئة من الناقصين ليقولوا إن هؤلاء

المعلمين يفعلون كل شيء ، بينما يحظى راجيندرا على الفضل بخداع . اليوم كثيراً مانجد من ينتحلون لأنفسهم نصيب الأسد من أي إنجاز ويعتبرون مستخدمهم مجرد رئيس صوري ، لو كان للأقلام عقولٌ فإنها ولا ريب ستنتحر بسبب الظلم الذي يلحق بها من جراء تلطيخها بالحبر ، في حين يحصل الكاتب على المجد .

من الغريب أن هذا الرجل لم يحصل على أي اعتراف من مواطنيه حتى بعد مماته . لعل أحد الأسباب أن الحداد الوطني على فيدياساجار ، الذي وافته المنية في تلك الغضون لم يترك مكاناً لتقدير الآخرين ممن خطفهم الموت . سبب آخر ، ربما لأن مساهماته الرئيسية كانت خارج نطاق الأدب وعليه لم يتسنَّ له الوصول إلى قلوب الشعب .

36

كاروار

انتقلنا من شارع سادار إلى قرب كاروار على شاطيء البحر الغربي ، حيث كان أخي الثاني يعمل قاضياً هناك . كاروار ، المقر الرئيسي لمنطقة كانارا في الجزء الجنوبي من رئاسة بومبي ، هي كراسة دعائية في الأدب السنسكريتي لتلال مالايا حيث يزرع الهال المتسلق وشجر الصندل .

كان المرفأ الصغير المحاط بالتلال معزولاً لحد نفى عنه أي علاقة بميناء ، ويمد الشاطىء الهلالي الشكل ذراعيه حول البحر الشاسع تماماً كما لو أنه يناضل بتوق للإحاطة باللانهائي . على حافة الشاطىء الرملي الواسع غابة أشجار الكسورنياس التي يقطع أحد أطرافها نهر الكالاناادي الذي يصب في البحر بعد جريانه في ممر ضيق محاط من جانبيه بالتلال .

أذكر يوم أبحرنا في النهر ذات مساء مقمر في قارب صغير . وقفنا عند إحدى قلاع تلال شيفاجي القديمة . عند هبوطنا وجدنا أنفسنا في ساحة بيت فلاح صغيرة نظيفة . جلسنا في بقعة مضاءة بشعاع القمر

نمعن النظر إلى ما فوق السور الخارجي ، ومن ثم تناولنا ما جلبناه معنا من طعام . في إيابنا تركنا القارب ينساب على هواه . كان الليل قد سكن فوق التلال والغابات الثابتة ، وجريان كالانادي الصامت يغمرنا جميعاً . وصلنا منبع النهر بعد وقت طويل ، وعوض الرجوع بالبحر ، تركنا القارب خلفنا وعدنا إلى البيت سيراً على الأقدام فوق الرمال . كان الليل قد تأخر والبحر هادىء دون أي مويجة ، وسكنت حتى همهمة أشجار الكسوريناس الدائمة الإزعاج وتجمدت ظلالها على طول حافة الرمل الفسيحة بلا حراك ، وتهجع بسلام دائرة التلال الزرقاء الرمادية المحيطة بالأفق تحت السماء .

في هذا البياض الصامت اللامحدود سرنا وظلالنا دون أن ننبس بكلمة . حين وصلنا البيت ، ضاعت رغبتي في النوم في شيء أعمق . تمتزج القصيدة التي كتبتها على ذلك الشاطيء النائي بالليل ، بشكل لا فصام فيه . لا أدري كيف سيكون تأثيرها على القاريء بمعزل عن هذه الذكريات . أدى هذا الشك لحذفها من طبعة موهيت بابو لأعمالي . أعتقد أن ذكرياتي هي المكان المناسب لها :

دعني أغرق ، أتوه في أعماق منتصف الليل

دع الأرض تتركني ، طليقاً من عاتق الجثة الترابية

أيتها النجوم الثملى بشعاع القمر ، أرقبي من بعد

الأفق يغمرني بأجنحته .

لا تدع هناك أغنية ، لا كلمة ، لا صوتاً ، لا لمساً ، لا نوماً ، ولا يقظة .

بل ضوء القمر وحده كخدار نشوة في وجودي وفي السماء .

العالم ، في نظري ، سفينة حجاج لاحصر لهم ، تتلاشى في زرقة السماء النائية .

تضعف وتتلاشى أنشودة ملاحيها في الهواء .

وأنا أغرق في ثنايا الليل اللامتناهي ، أذوي بعيداً عن نفسي ، وأتضاءل إلى شفير هاوية .عليّ أن أضيف أن طفرة المشاعر عند الكتابة لاتضمن جودتها . الأحرى ، إن التعبير يميل إلى العاطفة المكثفة . تماماً كما لايتوجب على الكاتب أن ينفصل عن المشاعر التي يعبر عنها ، فإن شدة قربه منها أيضاً تقصيه عن الشعر الحقيقي . الذاكرة هي أفضل فرشاة لرسم الألوان الأصيلة ، يمكن أن يصبح التقارب قوة ضاغطة تؤدي إلى حرمان المخيلة من الحرية الكافية . في كل الفنون وليس في الشعر فقط ، على عقل الفنان أن يحصل على درجة من التحفظ ولا يسمح للمبدع القابع في داخله بالسيطرة الكاملة . إذا تغلبت المادة المعالجة على المبدع تكون النتيجة مجرد نسخة مطابقة للحدث وليس انعكاساً لها من وجهة نظر الفنان .

37

ثأر الطبيعة

كتبت في كاروار قصيدة درامية باسم «ثأر الطبيعة» . كان البطل سانياسي يناضل للانتصار على الطبيعة والوصول إلى المعرفة الحقيقية لذاته وذلك بقطع روابط الرغبة والعاطفة . تعيده فتاة صغيرة من مناجاة اللامحدود إلى العالم وإلى الرابطة العاطفية الإنسانية . عندها يدرك أنَّ العظيم كامن في الصغير ، واللامحدود في تخوم الشكل وحرية الروح الأبدية في الحب . في شذى الحب فقط ، يدمج كل محدود باللامحدود .

من المؤكد أن شاطىء البحر في كاروار هو المكان المثالي لتقدير أن جمال الطبيعة ليس من سراب الخيال ، بل انعكاس الفرح في اللامحدود الذي يغرينا بضياع أنفسنا . وليس من المدهش إذا فقدنا اللاتناهي هذا في التعبير المجرد لهذا الفرح الكوني الشامل . لكن عندما نرى الجمال في أوضع الأشياء ، والقلب في اتصال مباشر مع الضخامة ، هل يبقى مكان للنقاش؟ !

تنقل الطبيعة السانياسي إلى اللامحدود الذي توّجه وعظّمه القلب

في المحدود . من جهة قدَّمتْ «ثأر الطبيعة» القرويين وأبناء السبيل الراضين بوتيرة الحياة البيتية وغير الواعين لأي شيء غيرها ، ومن جهة أخرى السانياسي المنهمك بنبذ كل ما بحوزته ، بما فيها نفسه ، وإلقائها في لا تناهٍ نسجه خياله الذاتي . حين يوحد الحب بين الاثنين ويلتقي الناسك بربِّ البيت ، تختفي تفاهة المحدود البادية وبطلان اللامحدود الظاهري ، على حد سواء . هذه ، بصيغة مختلفة قليلاً ، قصة تجربتي مع أشعة النور التي شقت طريقها إلى أعماق الكهف الذي انعكف فيه بعيداً عن العالم الخارجي ، والتي قربتني للطبيعة مرة ثانية أكثر . يمكن أن تقرأ «ثأر الطبيعة» كمقدمة لمجمل أعمالي الأدبية في المستقبل ، أو بالأحرى ، للموضوع الذي تطرقت إليه كل كتاباتي :

متعة الوصول إلى اللامحدود ضمن المحدود .

كتبت في طريق عودتنا من كاروا بعض الأغاني لقصيدة «ثأر الطبيعة» على ظهر السفينة . أبهجتني الأغنية الأولى كثيراً وأنا اكتبها وأغنيها جالساً على السطح :

أماه ، دعي ابنك الحبيب لنا

دعينا نصحبه إلى الحقل حيث يرعى القطيع .

أشرقت الشمس ، تفتحت البراعم ، قطيع الأبقار ذاهب إلى المرعى ، وليس بوسعهم ترك أشعة الشمس والزهور ولعبهم في المراعي خاوية . يريدون أن تكون الشايما(كريشنا) معهم هناك في غمرة كل ذلك . غادروا مبكرين لأنهم يودون رؤية اللامحدود في كل جماله المزخرف

بعناية ، والمشاركة في المرح بين الدرجات الهابطة إلى النهر ، وفي الحقل والغابة والجبال ، لا الإعجاب من بعيد ولا الافتتان بالفخامة . متطلباتهم قليلة ، كل ما يحتاجونه من الملابس كساء أصفر بسيط ، وأكليل من الزهور البرية . ذلك أنها تغيب حين يبحث عنها بتوق أو بموكب عظيم في المكان الذي يعم الفرح كل أرجائه .

بعد عودتي من كاروا بقليل تزوجت . كنت حين ذاك في الثانية والعشرين .

38

صور وأغنيات

«صور وأغنيات» هو عنوان كتاب من القصائد كتب معظمها في تلك الفترة . كنا يومها نعيش في بيت بحديقة في طريق لورسيركيولار ، بمحاذاته على الجهة الجنوبية بوستي* كبيرة . كنت أهوى مراقبة مايجري في المستوطنة المزدحمة . من أعمال السكان ، لهوهم واستراحتهم ، واختلاف قدومهم وذهابهم ، وأنا قابع قرب النافذة . كان كل ذلك لي كقصة تحققت . استحوذت عليَّ حين ذاك ملكة متعددة النظرات . أحطت كل صورة مستقلة بضوء من مخيلتي وفرحي وقلبي وسكبت فيها ما لها من عواطف -كانت متعة تميّز كل صورة مثل رسمها تماماً ، كلاهما حصيلة رغبة لفهم ما تراه العين بالعقل ورؤية مايتخيله العقل بالعين . لو كنت رساماً لحاولت الاحتفاظ ولا ريب بسجل خيالات وإبداعات تلك الحقبة ، يوم كنت في غاية النشاط واليقظة وسرعة الاستجابة ، إلا أني افتقرت لتلك الهبة . ما توفر لي هما الكلمات والقوافي ، وحتى بهما لم أكن قد تعلمت الرسم بعد بضربات ثابتة أو التلوين دون إسراف . مع ذلك

* راجع شرح المفردات في نهاية الكتاب .

قضيت يوماً كاملاً في رسم صور من أحلام صباي المتنوعة ، كطفل بصندوق ألوانه الأول . قد تظهر هذه الصور لو عرضت اليوم ، مع الأخذ بعين الاعتبار أني كنت في الثانية والعشرين ، ملامحَ جديرة بالاهتمام حتى عبر التنفيذ غير المتقن والألوان الضبابية . لقد ذكرت أن أول كتاب في حياتي الأدبية جاء مع نهاية «أغاني الصباح» . استمر نفس الموضوع تحت أسماء مختلفة . أعلم أن كثيراً من الصفحات الأولى في الكتاب غير مهمة . تحتاج البدايات الجديدة بلا شك إلى تصحيح كبير في التمهيدات الزائدة . لو كانت هذه أوراقاً على شجرة لسقطت في الوقت المناسب من سوء الحظ ، تبقى صفحات الكتاب متشبثة به حتى عندما لا تكون هناك حاجة لها . ميزة هذه القصائد أنها أبدت اهتماماً كبيراً بالأشياء العادية . غنمت «صور وأغنيات» كل فرصة لإعطاء قيمة للأمور التافهة وذلك بإشباعها بالألوان النابعة من صميم القلب . لا ينصف هذا عملية التأليف الموسيقي . عندما يدوزَن العقل بشكل صحيح توقظ كل أجزاء أغنية الوجود ذبذباتها المتعاطفة . كانت هذه الموسيقى التي استيقظت في داخلي السبب في عدم شعوري بتفاهة أي شيء عندما أكتب . أثار كل ما وقعت عليه عيناي استجابةً في الداخل . في شبابنا ، نصبح مثل أطفال يلعبون بالرمل والحجارة والأصداف وكل ما يجدونه –لأن روح اللعب في داخلهم– وندرك أن الكون قيثارة بآلاف عديدة من الأنغام ، يمكن لأي منها أن تلازمنا كرفيقة ، ولا داعٍ للسعي خلفها بعيداً .

39

فترة طارئة

بين «صور وأغنيات» ، و «انغمات حادة ونغمات خفيفة» ظهرت مجلة أطفال تدعى «بالاك» وازدهرت وماتت مثل نبتة حولية . شعرت زوجة أخي الثاني بالحاجة الماسة إلى مجلة أطفال مصورة . كانت فكرتها أن يساهم صغار العائلة بمادتها . لكن حين أحست أنها وحدها غير كافية للمهمة ، تفرغت للتحرير وطلبت مساعدتي في المساهمة بالمواد .

حدث أن زرت راج نارين بابو في ديوجهار بعد صدور عدد أو عددين من «بالاك» . في رحلة العودة كان القطار مزدحماً ، وحيث أن النور غير مظلل فوق المضجع الوحيد الذي استطعت الحصول عليه ، هجرني السبات . فكرت في استغلال هذه الفرصة للتفكير في قصة لمجلة «بالاك» . بالرغم من محاولاتي تملصت القصة مني ، غير أن النوم جاء وأنقذني . رأيت في المنام درجات معبد حجرية ملطخة بدماء ضحايا ، وفتاة صغيرة تقف هناك مع والدها ، تسأله بلهجة يرثى لها «أبي ، ماهذا؟ لم كل هذه الدماء؟» . يحاول الأب المتأثر داخلياً أن

يهدىء من تساؤلها بإظهار الفظاظة . عندما استيقظت شعرت بأني وجدت قصتي . رأيت كثيراً من قصصي وكتابات أخرى أيضاً في الأحلام . جعلت قصة الحلم هذه جزءاً من حوليات ملك تريبورا جوبندا ماينكيا ، وعملت منها قصة مسلسلة قصيرة لمجلة «بالاك» أسميتها «راجا رشي» أي «الحكمة الملكية» .

كانت تلك أيام دون أي هموم بتاتاً . لم يكن ثمة ما يلح للتعبير عن نفسه في حياتي أو كتابتي . لم أكن قد التحقت بعد بجموع الرحالة في درب الحياة ، بل مجرد مشاهد من نافذة . مر من أمام ناظري كثيرون من عابري السبيل وهم يؤدون مهمات متنوعة ، وجاءت الفصول دون دعوة ومكثت معي كزوار في أرضٍ أجنبية .

ليس الفصول فحسب ، بل الرجال من كل الأنماط الغريبة انسابوا كقوارب جارية دون مرساة ، وغزوا حجرتي الصغيرة على نحو دوري . سعوا لتعزيز غاياتهم الخاصة على حساب قلة خبرتي بأساليب كثيرة غير عادية . لم يكن عليهم أن يتكبدوا كل هذا العناء لاستغلالي ، فلم أكن كثير خبرة ومتطلباتي قليلة وأفتقر إلى حذق التمييز بين النية الحسنة والشريرة . كثيراً ما تصورت أني أساعد في دفع تكاليف دراسة أناس صلتهم بها عديمة كصلتهم بالكتب .

جلب لي شاب طويل الشعر مرة رسالة من شقيقته تطلب فيها مني أن أعتني بأخيها الذي يعاني من ظلم وتعسف زوجة أبيه -الخيالية كالشقيقة نفسها- كفاني أن الأخ ليس خيالياً . كانت رسالة شقيقته

غير ضرورية كحاجة خبير في الرماية للبراعة كي يسقط طيراً لا يستطيع الطيران .

جاءني شاب آخر وأخبرني أنه يدرس ليحصل على بكالوريوس آداب ، ولكنه عاجز عن تقديم الامتحان لأنه مصاب بداء في المخ . قلقت عليه وحيث أني لست خبيراً في العلوم الطبية أو أي علم آخر ، لم يكن بوسعي إسداء النصح له . مع ذلك راح يشرح أنه رأى في المنام أن زوجتي كانت أمه في مولد سابق ، وقد يشفى إذا شرب قليلاً من ماء لمس قدميها . ختم قوله مبتسماً «ربما لاتؤمن أنت بمثل هذه الأشياء !» . أجبته أن إيماني ليس مهماً ، لكن إذا كان يظن أنه سيشفى ، فعلي الرحب والسعة ؛ وهكذا جلبت له قارورة ماء من المفروض أنها لمست قدمي زوجتي . قال إنه شعر بتحسن كبير . بدأ بالماء ليصل في مجرى التطور الطبيعي إلى الطعام . من ثم انتبذ ركناً من حجرتي وراح يقيم حفلات التدخين مع أصدقائه حتى أجبرت على الهرب من الهواء المثقل بالدخان . أثبت ، ولا ريب ، تدريجياً أن عقله ليس ضعيفاً رغم مرضه .

بعد هذه التجربة أصبحت بحاجة إلى إثبات مقنع قبل أن أضع ثقتي في أطفال ميلاد سابق . لابد أن سمعتي قد شاعت لأني تلقيت رسالة من ابنة في محنة . هنا ، وضعت حداً لذلك بلطف .

في غضون ذلك توثقت صداقتي مع بابو شريش شاندرا ماجومدار بسرعة فائقة . كان يأتي كل مساء إلى حجرتي الصغيرة مع بريا بابو

لنناقش الأدب والموسيقى حتى ساعة متأخرة من الليل . في بعض الأحيان كنا نقضي كل النهار على هذا المنوال . في الواقع لم تكن ذاتي قد تشكلت ونمت في شخصية قوية محددة ، وعليه سارت حياتي بخفة وسلاسة سحابة خريفية .

40

نكيم شاندرا

في ذلك الوقت بدأت معرفتي ببانكيم بابو الذي رأيته قبل ذلك بوقت طويل . شرع خريجو جامعة كلكتا باقامة اجتماع سنوي ، كان موجهه الروحي بابو شاندراناث الذي دعاني لإلقاء قصيدة هناك ربما لأمله أن أصبح واحداً منهم في المستقبل . كان شاندراناث بابو آنئذ شاباً . أذكر أنه قام بترجمة قصيدة عسكرية ألمانية إلى الإنجليزية ، اقترح أن يلقيها بنفسه في ذلك اليوم ، لذا جاء مفعماً بالحيوية ليتدرب عليها . حيث أن قصيدته المفضلة كانت قصيدة غنائية لشاعر مقاتل يتغنى بحسامه المحبوب ، سيقتنع القاريء أنّه حتى شاندراناث كان يوماً شاباً ، وأكثر من ذلك أن تلك الأيام كانت مميزة حقاً .

بينما كنت أطوف بين الحشود في اتحاد الطلاب ، صادفت فجأة شخصية أثارت اهتمامي لتميزها عن أي مخلوق آخر ، والتي لا يمكن أن تضيع في أي حشد ، كانت ملامح هذه الشخصية الطويلة الوسيمة تشع بالبهاء . لم أقدر على السيطرة على فضولي ، وشعرت أنه الشخص الوحيد الذي أود معرفة اسمه في ذلك اليوم . حين علمت

أنه بانكيم بابو ازداد إعجابي لأن ذلك يمثل تطابقاً رائعاً بين الخالق والخلق . كان أنفه المعقوف وشفاهه المسطحة ونظرته الحادة تنم عن ذكاء مفرط . بدا ويداه تطوقان صدره كأنه يسير وحده منفرداً شامخاً فوق الحشد العادي هذا أكثر ما أثار اهتمامي . كان على جبينه سمة أمير حقيقي بين الرجال .

حادثة صغيرة في ذلك الاجتماع يتعذر نسيانها . كان في إحدى الحجر معلم يلقي بعض القصائد السنسكريتية من نظمه ويفسرها بالبنغالية إلى المستمعين . لم تكن إحدى الإشارات الضمنية فظة تماماً بل نابية إلى حد ما . حين استمر المعلم في شرحها ، غطى بانكيم بابو وجهه بيديه وانطلق خارجاً . كنت قرب الباب وبميسوري مشاهدة جسده المتقلص المتراجع .

بعد ذلك تشوقت مراراً لرؤيته ، إلا أن الفرصة لم تسنح لي . أخيراً ، عندما كان ممثلاً للحاكم في هاوراه ، تجرأت وعرجت عليه . تقابلنا وحاولت جهدي محادثته ، إلا أني شعرت بارتباك كبير في طريق عودتي إلى البيت ، كما لو أني تصرفت كشاب غير مغرور بإقحام نفسي عليه دون دعوة أو تقديم .

بعد سنة أو سنتين ، أصبحت أصغر رجالات الأدب في ذلك الزمن ، إلا أن موقعي من حيث ترتيب الجدارة بقي عرضة للشك . امتزجت السمعة التي حصلت عليها بكثير من الريبة وليس بقليل من السلوك اللبق لإظهار التفوق . كانت العادة السائدة حين ذاك في البنغال تعين

مكاناً لكل أديب وذلك بمقارنته بند مفترض من الغرب . وهكذا ، واحد كان بيرون البنغال ، وآخر أميرسون وهلم جرا . أنا أصبحت أدعى شيللي البنغال ، إهانة لشيللي وأمر مضحك لي .

كان لقبي المعترف به شاعر ليزينج . إحرازاتي ضئيلة ومعرفتي بالحياة قليلة ، وفي كلا الشعر والنثر ، فاقت العاطفة الجوهر . لم يكن هناك ما يوفر قاعدة تمكن أحداً من الاطراد بثقة . كانت ملابسي كتصرفاتي من نفس النوعية غير السوية ، شعري طويل وأنا غارق ربما في أخلاق الدماثة الشعرية المغالى بها . باختصار ، كنت غريب الأطوار وعاجزاً عن ملاءمة نفسي في الحياة اليومية كأي رجل عادي .

في تلك الغضون أصدر بابو أكشاي ساركار مجلته النقدية الشهرية ناباجيبان – الحياة الجديدة– التي كنت أساهم فيها بين حين وآخر . أما بانكيم بابو فقد تخلى عن تحرير بانجادارشان وانهمك في الكتابة اللاهوتية التي أصدر من أجلها المجلة الشهرية براشار –المبشر– أسهمت بأغنية أو اثنتين فيها وإعجاب عاطفي مسرف بقصائد فيشنافا الغنائية ، الآن صرت أقابل بانكيم بابو الذي كان يقطن في شارع بهاباني دوت باستمرار . صحيح أن زياراتي كانت كثيرة ، لكن الحديث لم يكن كذلك ، ذلك أني كنت في عمر السماع لا الحديث . تمنيت أن ندخل في نقاش ، لكن الحياء غلب قدرات حديثي . أحياناً يأتي أخوه الأكبر سانجيب بابو إلى هناك ويضطجع على وسادة . كان المنظر يبهجني لأنه أنيس كريم الروح يستمتع بالحديث ومن المطرب سماعه . لابد لمن

اطلعوا على نثره أنهم لاحظوا سلاسة خفتها وبهجتها كحديث مرح مفعم بالحيوية . قلة تتحلى بهبة الحديث هذه والأقل الفن لترجمتها في الكتابة . كان هذا وقت صعود شهرة بانديت ساشادهار الذي سمعت عنه أول مرة من بانكيم بابو . إذا أسعفتني الذاكرة جيداً ، فإن بانكيم بابو هو الذي وقف وراء تقديمه للجمهور . انتشرت في كل البلاد محاولته الملفتة للنظر في إحياء هيبة العقيدة الهندوسية التقليدية بمساعدة العلم الغربي . كان الثيوصوفيون قد مهدوا السبيل قبل ذلك ، لكن هذا لا يعني أنَّ بانكيم بابو قد وجد نفسه في معتقد الطائفة الجديدة . لم يظهر تأثير لا يمكن تخيله لساشادهار عليه في عرضه للهندوسية في براشار .

كنت حين ذاك أخرج من عزلتي كما تظهر مساهماتي في هذه المناظرات . كان بعضها قصائد هجائية والبعض مسرحيات ساخرة والأخرى رسائل للصحف . هبطت للحلبة من سحب العاطفة ورحت أجادل بجدية حقيقية .

في حمى وطيس المعركة تهجمت على بانكيم بابو بشكل كريه . بقي تاريخ تلك الأيام مسجلاً في براشار وبهاراتي ولاحاجة لإعادته هنا . عندما وضع حداً لفترة العداء هذه ، كتب لي بانكيم بابو رسالة أضعتها مع الأسف ، ولو كانت موجودة واطلع عليها القارىء لاستطاع أن يرى بنفسه كرم أخلاق بانكيم بابو العالية وتقبله لسعة هذه الحكاية المؤسفة .

41

هيكل السفينة البخارية العتيق

ذهب أخي جيوتيريندرا بعد ظهر يوم وقد أغراه إعلان في صحيفة إلى مزاد علني ، وعاد ليخبرنا بأنه اشترى هيكل سفينة بخارية فولاذية عتيقة بسبعة آلاف روبية ، وكل ما تحتاجه الآن محركاً وبعض المقصورات لتصبح سفينة كاملة .

لابد أن أخي فكر أن من العار على مواطنينا أن يطلقوا أقلامهم وألسنتهم دون أي حركة لإقامة خط بحري واحد . رويت من قبل كيف حاول إشعال الكبريت من أجل بلاده دون أن يفلح أي حك في إشعالها . وأراد أن يشغل آلة نسج كهربائية أيضاً ، وبعد كل هذه صنع قطعة قماش صغيرة ، قبل أن تتوقف الآلة . الآن أراد فتح خط ملاحة هندي يبحر جيئةً وذهوباً ، لذا اشترى هذا الهيكل القديم الفارغ . في الوقت المتوقع امتلأت السفينة ليس بالمحركات والمقصورات فقط ، بل بالخسارة والخراب أيضاً ، اللذين حلا به وحده ، في حين أفادت التجربة البلاد بأسرها . بذرت تلك الأرواح التي تفتقر إلى الحس التجاري وإجراء الحسابات المسبقة المدروسة ، وروت حقل أعمال

البلاد بأنشطتها . رغم أن الفيضان يخمد بنفس سرعة طوفانه ، إلا أنه يخلف الطمي الخصب الذي يغني التربة . لا يفكر أحد في هؤلاء حين تدنو ساعة الحصاد ، غير أن من راهنوا ببشاشة وخسروا كل ما يملكون في الحياة ، من المرجح أن لا يكترثوا لخسارة ثانية في مماتهم وهي النسيان .

في جهة كانت شركة فلوتيلا بإدارة بريطانية ، ويقابلها في الجهة الأخرى أخي جيوتيريندرا . قد يذكر أهالي كولنا وباريسال روعة وطيس معركة الأساطيل . تحت وطأة المنافسة أضيفت باخرة للأخرى ، وتراكمت خسارة على خسارة وتضاءل الدخل حتى أصبح طبع التذاكر لا يستحق العناء . أشرق عصر ذهبي في الخط الواصل بين كولنا وباريسال ، ليس لأن الركاب كانوا يسافرون بالمجان ، بل لأن المرطبات قدمت لهم دون مقابل أيضاً . من ثم تكونت جماعة من المتطوعين يحملون الأعلام ، وينشدون الأغاني الوطنية . ويرافقون المسافرين على متن البواخر الهندية . لذا لم تكن هناك ندرة في المسافرين ، إلا أن الاحتياجات الأخرى تضاعفت بسرعة فائقة .

لم يتأثر الدخل بالحماس ، وفي حين تعاظم الحماس الوطني فإنَّ ثلاثة ضرب ثلاثة استمرت تساوي تسعة بثبات ، لكن على الجانب الخاطيء من الميزانية العمومية .

إحدى المحن التي تلاحق عديمي الحس التجاري مثل أخي هي رغم إمكانية قراءة أفكارهم ككتاب مفتوح ، إلا أنهم لا يتعلمون أبداً قراءة

شخصيات الآخرين . وحيث يضيعون أعمارهم وكل مصادر أموالهم ليكتشفوا ضعفهم ، لا تسنح الفرصة لهم ثانية ليستفيدوا من التجربة . من المؤكد أن الآخرين من المسافرين الذين تقدم لهم المرطبات بالمجان ، إلى العاملين الذين لم تبْدُ عليهم أي بوادر مجاعة ، يكسبون ، غير أن أكبر المستفيدين كان أخي لأنه واجه الخراب بمنتهى البسالة .

أبقتنا نشرات النصر أو المصائب اليومية التي كانت تصل من ساحة المعركة في حُمَّى الإثارة ، حتى جاءت الأخبار يوماً بأن الباخرة سواديشي سدت جسر هاوراه وغرقت . عندها تجاوز أخي حدود مصادره المالية تماماً ولم يبقَ له إلا تصفية المشروع .

42

الموتى

في غضون ذلك جاء الموت الذي لم أواجهه مطلقاً إلى عائلتنا . كنت لا أزال طفلاً حين رحلت أمي . كانت متوعكة لوقت طويل ، ولم نكن حتى على علم بأن مرضها قد أصبح مميتاً . عندما كبرنا ، صارت تنام على سرير منفصل في نفس الحجرة معنا . أخذت أثناء مرضها في جولة نهرية بقارب وحين عودتها أعدت لها حجرة منفصلة في المقصورات الداخلية من الطابق الثالث .

في ليلة وفاتها ، كنا نغطّ في نوم عميق في حجرتنا في الطابق السفلي ، وفي ساعة لا أذكرها ، ركضت مربيتنا العجوز وهي تنشج بالبكاء «آه ، يا صغاري ، لقد فقدتم كل شيء» . زجرتها زوجة أخي وقادتها إلى الخارج لتخفف عنا وقع الصدمة المفاجئة في جوف الليل البهيم . شعرت بقلبي يهوي وأنا نصف مستيقظ ولم أفقه ما حدث . حين أخبرنا بموتها في الصباح ، لم أدرك ما عنى كل ذلك لي .

خرجنا إلى الشرفة ورأينا أمي مسجاة على سرير في ساحة البيت ، ولاشيء من ملامحها يوحي بأن الموت مرعب . كان مظهرها في ضوء

ذلك الصباح بهياً مثل رقاد ساكن هاديء ، والهوة الفاصلة بين الحياة وانعدامها لم تتوضح لنا .

حين أخرجت جثتها من البوابة الرئيسية وتبعنا الجنازة إلى المحرقة ، عندها فقط سرت في كياني رعشة حزن للتفكير بأن أمي لن تؤوب أبداً عبر هذا الباب وتأخذ مكانها المعتاد مرة أخرى في تدبير أمور البيت .

مر اليوم بطيئاً ، رجعنا من المحرقة ، وحين دلفنا زقاقنا نظرت صوب حجرات أبي في الطابق الثالث . كان لا يزال جالساً في الشرفة الأمامية ، خاشعاً في صلاته دون حراك .

تكفلت أصغر زوجة من زوجات إخوتي بالأطفال اليتامى . اعتنت بطعامنا ولباسنا وكل حاجاتنا الآخرى ، وبقيت قريبة منا دائماً كي لا نشعر بحدة الخسارة . إحدى صفات الأحياء هي القوة على الشفاء مما يتعذر ترميمه ، ونسيان من لا يعوضون . تكون هذه القوة في أوجها في أوائل العمر ، لذا لا تدلف أي طعنة عميقاً ، ولا يدوم جرح أبداً . لذا لم يترك ظل أول موت أصابنا ظلاماً خلفه . رحل كما أتى بخفة ، مجرد ظل ليس إلا .

فيما بعد ، سائراً كطائش في أوائل الربيع ، وقليل من الياسمين نصف المتفتح مربوط في طرف شالي الموسلين ، كانت لمسة أنامل أمي تعود لي حين أضرب جبيني بالبراعم الناعمة المدورة مستدقة الرأس ، وأحس بجلاء أن حنان رؤوس هذه الأنامل هو نفس النقاء الذي يزهر

كل يوم في براعم الياسمين . خالجني شعور أن هذا الحنان موجود في الأرض بوفرة غير محدودة ، عرفنا ذلك أم لم نعرف .

ظلت معرفتي بالموت الذي عرفته في الثالثة والعشرين دائمة ، يرجع صدى ضربتها مع كل وفاة لاحقة بإكليل من الدموع أكبر . يمكن للطفل تجاوز أعظم المحن ، لكن مع تقدم العمر لا تعود المراوغة سهلة . كان علي مواجهة الصدمة ذلك اليوم كاملة .

ليست عندي فكرة حول إمكانية وجود أي انقطاع في تعاقب أفراح وأتراح الحياة ، فأنا لم أر شيئاً وراء الحياة ، وأتقبلها كحقيقة مطلقة .

يوم جاء الموت على حين غرة وأحدث صدعاً في نسيج الحياة الهائلة ذهلت تماماً . بقي كل ما حولي من الأشجار والتراب والماء والشمس والقمر والنجوم حقيقة راسخة جامدة الشعوركما كانت سابقاً ، والإنسان الذي كان أيضاً مثلها هنا وأكثر حقيقة وصدقاً بالنسبة لي عبر ألف نقطة اتصال بالحياة عقلاً وقلباً ، اختفى في لحظة مثل حلم . ما أعقده من تناقض !! كيف لي تقبل ما بقي عوضاً عما مضى؟ !

استمر الظلام الرهيب الذي كشف لي عبر هذا الصدع في إغوائي ليلاً نهاراً والزمن في مساره . أعود إليه دائماً وأحدق فيه متسائلاً ما الذي بقي ليعوض ما رحل . غير حقيقي ، وغير الحقيقي عدم . لذا تستمر محاولاتنا دائماً كي نجد شيئاً حيث لا نرى شيئاً .

تماماً مثلما تمد نبتة صغيرة محصورة في الظلام نفسها متسلقة لتصل إلى النور ، كذلك الروح عندما يحيطها الموت بالعدم تحاول وتحاول أن

تثب إلى النور الدائم . أي حزن أعمق من الوقوع في فخ الظلام الذي يمنع المرء من أن يجد سبيله خارجه؟

مع ذلك ، في غمرة الأسى غير المحمول ، تتلألأ لمعات الفرح في عقلي على نحو متقطع بشكل يثير دهشتي . فكرة أن الحياة ليست شيئاً دائماً ساعدتني على تنوير ذهني ، وأننا لسنا سجناء إلى الأبد خلف حائط من الحقائق المتحجرة المشاعر هي الفكرة التي استمرت في الصعود بلا وعي أكثر من غيرها في دفقات الفرح . أقلقني أني أجبرت على إطلاق ما كان بحوزتي ، لكن في نفس الوقت غمرني سلام عظيم عندما رأيتها كحرية مكتسبة .

يوازن الموت عبء الوجود الدنيوي الطاغي ، لذا لا يسحقنا . ليس على الإنسان أن يتحمل ثقل الحياة الخالدة الرهيب . استبد بي هذا الشعور ذلك اليوم مثل كشف رائع . أصبح لجمال الطبيعة معنى أعمق بفضل إغراء العالم المحرر . وهبني الموت القدرة الصائبة لرؤية جمال العالم الكامل ، وحين رأيت الكون وفق هذه الخلفية الفكرية ، سلب لبي .

في تلك الفترة تفشت عندي من جديد غرابة الأفكار والسلوك . كنت أناشد للانصياع للعادات والتقاليد المرعية ، كما لو أنها واقعية وحقيقية ، في حين كانت تبعث الضحك بي . لم أستطع أخذها بجدية . تبخر من ذهني تماماً عبء التوقف لأخذ ما يظنه الآخرون بي في عين الاعتبار . ذهبت إلى متاجر بيع الكتب الراقية مكسياً بقطعة

قماش خشنة ملفوفة حول جسدي ، وخف في أقدامي الحافية فقط . في الحر والبرد والمطر ، كنت أنام خارجاً على الشرفة في الطابق الثالث ، حيث كنت والنجوم نحدق بعضنا ببعض ولا نغفل تحية الفجر .

لا علاقة لهذه الفترة بأي مشاعر زهد . كانت إجازة مرح صاخب صادفت اكتشاف المعلم «الحياة» -الذي عصاه أسطوره- وتحرير نفسي من قوانين مدرسته التافهة . إذا وجدنا حين نستيقظ في صباح جميل أن الجاذبية تناقصت إلى كسر ضئيل من قوتها ، هل نبقى سائرين برزانة على الطريق الرئيسي؟ ألا نفضل القفز من فوق البيوت المتعددة الطوابق من أجل التغيير ، أو نثب حين نأتي إلى بعض المعالم الأثرية طائرين ولا نتعب أنفسنا بالسير حولها؟ لذا وقد تحررت قدماي من جرجرة ثقل الحياة الدنيوية ، كان من المتعذر عليَّ التقيد بالأعراف السائدة .

التمست ، وأنا على الشرفة وحيداً في الليل البهيم ، طريقي كأعمى محاولاً أن أجد بعض الدلالات التي تقود إلى بوابة الموت ذات الحجر الأسود . في الصباح ، حين أفتح عيوني ، يشعرني النور الساقط على فراشي الذي لا يستره حجاب بأن الضباب الرقيق الذي يغلف عقلي كان شفافاً بحق ؛ وحالما ينقشع الضباب تكتسي التلال والأنهار والغابات حلة جديدة وتبدو صورة الوجود المشبعة بالندى المفروشة أمامي جميلة منعشة .

43

الأمطار والخريف

وفق التقويم الهندوسي يحكم كل سنة كوكب معين . لذا ، في كل فترة من حياتي ، يأخذ فصل ما أهمية خاصة . أكثر ما أذكر عندما أعيد النظر في طفولتي هي الأيام الماطرة . بوسعي رؤية الأمطار التي ساقتها الرياح تطفح على أرض الشرفة وأبواب الغرف المصطفة المقفلة ، وبيري الخادمة العجوز التي تغسل الأطباق قادمة من السوق ، سلتها محملة بالخضروات ، تخوض في الوحل وهي مبللة بالمطر ، وأنا أعدو على الشرفة بنشوة دون غاية أو منطق .

شيء آخر أستعيده : في المدرسة ، في فصل يقوم على صف من الأعمدة يحيط الحصير بها كالشاشات . يتلاحق الغمام متتابعاً بعد الظهيرة ويتراكم الآن في السماء . نرقب المطر يهطل مدراراً ، يهزم الرعد بين فينة وأخرى طويلاً مدوياً ؛ تشق امرأة مجنونة السماء من طرف إلى آخر بمسامير البرق . تهتز الجدران القماشية بفعل الريح كما لو أنها ستطير معه . تمنعنا الظلمة من القراءة ، فيسمح لنا المعلم بإغلاق الكتب .

ندع العاصفة تقصف وتزمجر عوضاً عنا ، وأرجلنا المتدلية تتأرجح . يطير فكري إلى نجد قصي بلا نهاية يمر فوقه أمير القصص الخرافية . أذكر أيضاً جوف الليل البهيم في شهر شرافان ، وطقطقة الأمطار تنسل في نومي لتهبني راحة أعمق من السبات العميق . في فترات استيقاظي القصيرة أصلي لأن يستمر المطر للصباح ليغمر باحة بيتنا ، وتطفو المياه حتى أعلى درجات حوض الاستحمام . لكن في العمر الذي أتكلم عنه ، كان الخريف ، لا الفصل الماطر ، الملك المتوج فوق كل الشبهات . يمكن لحياتي أن تري هنيئة تحت سماء أشوين الصافية الشفافية ، وفي شعاع شمس الخريف الذهبي المصهور المنعكس بنعومة من الخارج الأخضر المنعش الندي . كنت أذرع الشرفة جيئةً وذهوباً وأكتب ببراغا جوجيا الأغنية القائلة :

في نور هذا الصباح
لا أدري ما يرغبه قلبي .

ينصرم النهار ببطء وتثاقل ، يقرع الجرس القرصي في البيت معلناً الثانية عشرة ظهراً ، يتغير المزاج ، غير أن ذهني يبقى مشبعاً بالموسيقى ولا حيز فيه للعمل أو أداء الواجب وأغني :

أي لعبة عديمة الجدوى هذه ، يا فؤادي ، في الساعات الكسولة؟ بعد الظهر أضطجع على ملاءة بيضاء مفروشة على أرض حجرتي الصغيرة ، أحاول أن أرسم في دفتر رسم ، لا بالسعي المضني للإلهام ، بل مجرد عبث بأمنية أن أرسم صوراً . أهم جزء يبقى في الذهن ، ولا

خط منه يوضع على الورق . في تلك الأثناء يرشح بعد ظهيرة الخريف الساكن عبر جدران حجرتي ويطليها ككوب بالذهب المسكر .

لا أدري لماذا يتراءى لي أن كل أيامي حين ذاك كانت وكأنها تحت سماء الخريف هذه ومضاءة بضوء الخريف هذا ، الخريف الذي أنضج أغنياتي كما ينضج الحنطة للزارعين ؛ الخريف الذي ملأ مخزن ترفي بالبهاء ؛ الخريف الذي غمر عقلي المستريح بالمتعة المفرطة والقصص والأغاني الخلابة .

الفرق الأساسي بين فصل الأمطار في طفولتي وخريف شبابي هو أنه في الأول حضنتني الطبيعة بحميمية وأمتعتني بفرق موسيقاها العديدة ، وتبرجها الملون وموسيقاها الخليطة الأنواع ، في حين كان الاحتفال في الثاني ينبع من داخلي . تقهقر لعب السحب وأشعة الشمس إلى الخلفية واحتلت العقل همهمات الفرح والأسى . هذه الأمور أضفت على زرقة سماء الخريف مسحتها الكئيبة وغلفت أنفاس النسيم بالحدة .

وصلت قصائدي الآن أبواب عقول الرجال . لم يعد من الممكن لها أن تأتي وتذهب كما تشاء ؛ كان ثمة باب تلو باب وحجرة داخل حجرة . كم مرة يتوجب علينا أن نعود بلمحة نور من نافذة فقط ، وصوت المزامير وبعض آلات الفلوت أو شيهناي ، في مكان ما داخل بوابات القصر يتردد في آذاننا ! على العقل أن يعامل بالعقل ، والإرادة أن تكون على علاقة طيبة مع الإرادة . يجب التغلب على العديد من

العقبات قبل أن تصبح هناك إمكانية للصلة الحقيقية . تندفع الحياة بغزارة وتحيط بهذه العقبات ، تزبد وترغد بالضحك والدموع ، ترقص وتدور في دوامات ولا تسمح لأحد أبداً أن يحدد مجراها .

44

أنغام عالية وأنغام خفيضة

كاري أو كومال -أنغام عالية وأنغام خفيضة- هو سيرناد* من الشوارع قبل أن يقطن الإنسان في البيوت ، التماس يسمح له بولوج واحتلال مكانة في بيت الغموض ذاك .

هذا العالم حلو - لا أريد أن أموت

أود أن أحيا في تيار الإنسانية

هكذا يكرس الفرد نفسه للحياة .

حين شرعت في رحلتي الثانية إلى إنجلترا ، تعرفت على ظهر الباخرة على أشوتوش شودهوري . كان قد حصل على شهادة الماجستير من جامعة كلكتا وفي طريقه إلى إنجلترا للالتحاق بجماعة المحامين . قضينا سوياً الأيام التي استغرقتها رحلة الباخرة من كلكتا إلى مدراس فقط ، لكن بدا واضحاً أنَّ عمق الصداقة لا يعقد على طول المعرفة . جذبني إليه في ذلك الوقت القصير ببساطة قلبه الطبيعية لحد بدت صداقتنا وكأنها دائمة الوجود .

* سيرناد : لحن يغنّى في الهواء الطلق ، خاصة تحت نافذة المحبوبة (المترجم)

حين عاد أشو من إنجلترا ، أصبح واحداً من أفراد العائلة . لم يكن الوقت أو الفرصة قد سنحتا له للتغلب على كل العقبات التي تحيط بمهنته ولينخرط فيها تماماً . لم تكن أكياس الذهب ونقود زبائنه قد أرخت الخيوط التي تشدها . وكان أشو لا يزال جامع عسل متحمس من خلايا الأدب المختلفة . لم تكن لروحه التي عطرت بأريج الأشياء الغريبة المجهولة الآتية من وراء المحيطات ، أي صلة بعفن جلد المكتبة الفاخر ، استمتعت عند تلبية دعوته بكثير من النزهات الربيعية في فرجات الغابات النائية .

كان يتحلى بذوق خاص حيال الأدب الفرنسي . كنت حين ذاك أكتب القصائد التي نشرت فيما بعد تحت اسم «أنغام عالية وأنغام خفيضة» . تبين أشو شبهاً بين كثير منها والقصائد الفرنسية القديمة . كان العنصر المشترك ، وفق رأيه ، إغواء الشاعر بلعبة الحياة ، والذي يجد تعبيرات مختلفة في كل قصيدة . القوة الحيوية في الحالتين هي التوق غير المشبع للالتحاق بركب الحياة الواسع .

«سأرتب وأنشر هذه القصائد لك» قال أشو ، وعليه عهَدتُ إليه بالمهمة . اعتبر القصيدة التي بدايتها «العالم حلو» تمثل الفكرة الرئيسية في هذه السلسلة من القصائد ، لذا وضعها في البداية .

لعله كان على صواب . في الطفولة ، عندما كنت سجين البيت ، كنت أنظر بحزن من فتحات حاجز شرفة شقة السقف الداخلية وأهب قلبي للطبيعة . في الشباب ، جذبني عالم الرجال وأثر عليّ بقوة .

كنت لامنتميا ونظرت إليه من بعد . استنجد عقلي الواقف على شفير الحياة ببحار مبحر عبر الأمواج بتلويح الأيادي بلهفة ، لأن حياتي كانت تتطلع للشروع في رحلتها .

ليس من الصحيح أن عزلتي الواضحة كانت بمثابة عائق أمام انغماسي في التيار الاجتماعي . لا ألمس أي دلالة من مواطني بلادي النشطين اجتماعياً طوال حياتهم تنم عن استمتاعهم بالحياة بفضل هذه الألفة أكثر مني . للوجود الاجتماعي في بلادنا ضفافه المتغطرسة ، وسلسلة درجاته ومياهه الداكنة الهادئة التي تظللها الأشجار القديمة ذات الأغصان المورقة التي يسجع الوقواق أغنيتها القديمة الساحرة . لكن ، مع ذلك ، المياه آسنة . أين تيارها ، أين أمواجها ، ومتى يندفع المد من البحر؟ !

هل سمعت صدى أنشودة الشكر والتسبيح المظفرة لها يعلو ويهبط موجة إثر موجة ، يشق طريقه عبر جدران الصخور إليَّ البحر ، إلى الحي القائم خلف زقاقنا؟ كلا ! ! في عزلتي ، اغتظت بكل بساطة لأني لم أتلقَ دعوة إلى المكان الذي يقام فيه احتفال العالم .

ربما تتغلب الكآبة العميقة على الإنسان في العزلة الحسية الكسولة إذا حرم من الاتصال بالحياة . ناضلت دائماً بألم للتحرر من مثل هذا القنوط . رفض عقلي الاستجابة لسموم الحركات السياسية الرخيصة المجردة ، كما كانت ، من أي حس وطني والمطبقة الجهل بالبلاد وغير المبالية بخدمة الوطن الأم . لقد عذبني نفاذ الصبر الغاضب وعدم

الرضا غير المحمول إزاء نفسي وكل ما حولي . وأكثر من ذلك سألت نفسي إن كنت بدوياً عربياً !!

في أجزاء العالم الأخرى ، لا نهاية للحركة وصخب وعربدة مرح الحياة . نحن نقف في الخارج كالمتسولات وننظر بتوق إلى الداخل متى كان عندنا ما نزين به أنفسنا لنلحق بركب الآخرين؟ فقط في أرض حيث يسود العداء المسبب للشقاق بقوة ، وتفرقنا العقبات الصغيرة التي لا تحصى ، يبقى في حياة الإنسان ذاك التوق للتعبير عن حياة أرحب غير مشبعة . أجهدت نفسي في شبابي لأصل إلى الإنسانية ، كما كنت أتوق في طفولتي إلى العالم الخارجي من داخل الدائرة الطبشورية التي رسمها حولي الخدم ؛ ما أندره وأبعده ، وما أصعب الوصول إليه ! رغم ذلك ، إذا عجزنا عن الاحتكاك به ، إذا لم تهب نسمة منه ، ولا جرى تيار خارجاً ، ولا درب مفتوح على ممر الرحالة الحر ، عندئذ لن تتحرك الأشياء الميتة المتراكمة حولنا ، بل تستمر في التراكم حتى تحجب كل أثر للحياة .

أثناء سقوط الأمطار توجد سحب داكنة وزخات فقط ، في الخريف هناك لعبة الضوء والظل في السماء ، لكنْ ثمة شيء آخر أيضاً ، وعد القمح في الحقول . كان الفصل الماطر في حياتي المهنية شبيهاً بغموضه ، وتشويه رطوبة بعاطفة طنانة . كانت رسالتي ضبابية وإيقاعي مشوشاً غير متماسك . لكن في «أنغام عالية وأنغام خفيضة» الخريفية ، لم تظهر الألوان في السحب فقط ، بل نمت المحاصيل في

الأرض ، ثمة محاولة واضحة لا لبس فيها في تنوع اللغة والوزن لتأسيس صلته بالعالم الحقيقي .

وهكذا أغلق فصل آخر . انتهت الأيام الجذلة في الاختلاط مع العالم بحرية وإرادة . على رحلتي الآن أن تكمل في أماكن عيش البشر ربما لن ينظر للخير والشر ، والفرح والكرب ، التي تواجه الحياة كصور . ما الجلبة التي تجري هنا؟ يا له من بناء وتدمير ، اتحاد وصراع .لا أملك القوة لأكشف وأصف الفن الكامل الذي قادني به دليلي بمتعة لتخطي كل المصاعب والخصومة وعدم الاستقامة للوصول إلى تحقيق أعظم معنى داخلي لحياتي . وإذا عجزت عن توضيح هذا اللغز ، فإن كل ما قد أحاول شرحه سيؤدي بالتأكيد إلى سوء فهم في كل خطوة . إن تحليل صورة هو جمع الغبار فقط ، لا روح الفنان .

لذا وقد صحبتكم إلى باب ملاذي ، فإني أستأذن من قرائي .

شرح مفردات

بابو : لقب رسمي للمخاطبة ينم عن الاحترام . يقارب إلى حد ما لقب «السيد» .

بولز : شخص طائش متهور يرفض الأعراف السائدة ، ويولي اهتمامه الأول للاتصال المباشر مع الله بمساعدة الأغاني والمخدرات . يوجدون في شمال الهند ويشبهون في لباسهم الكهنة البوذيين أكثر من السايناسي الهندوس .

جياتري : قصيدة من الريج فيدا وتعتبر أقدسها ، وموجهة إلى إله الشمس سافيتري .

كادامبا : زهرة استوائية صفراء شجرتها مقدسة عند كيرشنا .

لوشي : خبز رقيق مدور من الطحين والماء فقط عند وضعه على النار ينتفخ كالبالون ، يقدم في الأعراس والاحتفالات وهو طعام الطبقة الرفيعة في البنغال .

ماجه : الشهر العاشر من السنة البنغالية ويصادف من منتصف يناير إلى منتصف فبراير .

بان : مزيج من عدة نباتات وأشجار يلف في ورق شجر التنبول ويمضغ في الفم . شائع الاستعمال في الهند كمهضم بعد الوجبات .

بايار : قصيدة طنانة من الشعر البنغالي مؤلفة من بيتين ، بقيت سائدة حتى منتصف القرن التاسع عشر .

تابنور : آلة موسيقى وترية من أربعة أوتار .

ميثيلي : لغة مختلفة عن البنغالية ولكن ليس بشكل كبير وأساسي .

بوستي : في الأصل تعني الجزء غير المسكون من قرية أو بلدة . في أيام طاغور كانت تعني منطقة فقيرة من الأكواخ المكتظة بالسكان وفيها أزقة ضيقة تقع على جانب الطرقات ، يسكنها الخدم والفقراء . لم تكن بعيدة عن المناطق الغنية . الآن تعني الكلمة الحي الفقير القذر .

الفهرس

المجمع الثقافي

Cultural Foundation

ص. ب ٢٣٨٠ - ابوظبي - الإمارات العربية المتحدة - هاتف : ٢١٥٣٠٠

P.O. BOX : 2380 - ABU DHABI - U. A. E. - TEL. 215300 - CULTURAL FOUNDATION

المجمع الثقافي
Cultural Foundation

ص. ب ٢٣٨٠ - ابوظبي - الإمارات العربية المتحدة - هاتف : ٢١٥٣٠٠
P.O. BOX : 2380 - ABU DHABI - U. A. E. - TEL. 215300 - CULTURAL FOUNDATION